منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

محسن الرملي








# تمر الأصابع

رواية




# تمر الأصابع

رواية

# تمر الأصابع

## رواية

محسن الرملي






بسم الله الرحمن الرحيم

**الطبعة الأولى**

**1430 هـ - 2009 م**

**ردمك 978-9953-87-627-6**



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com




عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb



التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

# إهداء..

.. إلى العراق: مهد طفولتي ومهد الحضارات

.. إلى إسبانيا: محطتي للسلام بعد طريق طويل مكتظ بالحروب

# - 1 -

ما كنتُ لأكتب قصة أهلي وأفضحهم لولا تشجيع أبي لي وهو يحلق شعر رأسي في مرقصه المدريدي، قائلاً: "اكتب ما تشاء فلن يحدث أسوأ مما حدث.. هذا العالم جايف". لم أعلق على قوله، لحظتها، مكتفياً بمواصلة استشعاري لشفرته وهي تكاد تحلط الجلدة خلف أذني.

بدأت الحكاية يوم اصطحب أبي نوح أختي إستبرق إلى أطباء المدينة لتُعالَج من مرض أذبلها وجعلها تتغوط في ثيابها سائلاً أصفر، ولم تنفعها مداومتها على أكل مسحوق الخرنوب الذي وصفته لها الحكيمات من العجائز، فنحل جسدها وارتخى نهداها وهي في الرابعة عشرة من العمر، صارت شاحبة صفراء مثل أوراق التبغ، لكنها بدت أجمل من مجايلاتها القرويات، لأنها احتجبت عن شمس الحقول التي تصبغ الوجوه بلون الخشب القديم. لم تكن أمي لتكلفها بأعمال صعبة في المزرعة، فتكتفي بفعل أشياء بسيطة في البيت كترتيب الأسرَّة وغسل المواعين وكنس الدار ونشر الملابس. لقد ولِدت إستبرق توأماً مع أخت أخرى اسمها سندس ماتت بعد تسعة أشهر. كانتا ضعيفتين صغيرتين تتلويان في المهد كفأرتين مبللتين بالحليب، وكنا جميعاً نتوقع أن تموت إستبرق أيضاً، لكنها واصلت الحياة وإن كانت نحيلة صفراء لكنها طيبة وجميلة.

انطلق نوح من قريتنا الأولى - الصُبح - ظهراً، مصطحباً ابنته التي عطّرت ثوبها، ليصلا بعد ساعة إلى مدينة تكريت وقبل أن يدخلا

إلى عيادة أحد الأطباء، حيث كانت إستبرق تمشي خلفه على مسافة خطوة وهو يشق لها الطريق على رصيف السوق، مرت سيارة مرسيديس سوداء على مهل وامتدت من نافذتها يد إلى مؤخرة إستبرق وعبارة: "خوش طيز". فصاحت البنت فزعة واستدار إليها الأب الذي سرعان ما هب غاضباً ساحباً السائق من رقبته، صارخاً بوجهه: "يا ابن الكلب"، ورافعاً إياه كمن يرفع جرة من عنقها، حتى أخرجه من نافذة السيارة. كان شاباً نحيلاً يضع نظارات زرقاء فوق شويربه الجديد ويرتدي دشداشة بيضاء عريضة، على وسطها/وسطه حزام جلدي عريض يتدلى منه مسدس عند الخاصرة. السيارة السوداء واصلت سيرها البطيء خالية حتى ارتطمت بسيارة واقفة وتوقفت، فيما الحمال نوح بقوته على الفتى ضرباً وشتماً والفتى يصيح: "أتعرف ابن من أنا؟". ونوح يردد بلا هوادة أو اكتراث وبلا انقطاع عن الضرب: "نعم.. أعرف؛ أنت ابن كلب.. أنت ابن قحبة". تلطخ أبيض الدشداشة بأحمر الفتى الذي حاول أن يمد يده إلى مسدسه، فلوى نوح ذراعه وحمله عالياً ثم ضرب الأرض به، فسكن الشاب بلا حركة، بينما الغضب يجتاح نوح على أوجه فانحنى وأخذ المسدس من الحزام واستخرج مشط الرصاصات واضعاً ثلاثاً منها في كفه وألقى بالمسدس إلى فتحة المجاري، ثم عرى مؤخرة الفتى الساقط على وجهه وراح يُدخل الرصاصات في الإست عنوة، أدخل اثنين ثم وجد نفسه مطوقاً بأصحاب المحلات ودواب السوق - كما يسميهم - ترفعه جماعة وهو كثور مصارعة، صائحة به: "هل أنت مجنون.. هذا ابن أخت سكرتير نائب الرئيس".

بعدها.. وجد نفسه محمولاً من ظلمة ضربات الشرطة على بطنه إلى ظلمة بطن زنزانة، لا يعرف عن إستبرق شيئاً، ذلك أنها حين رأت الدم تغوطت الأصفر على ثوبها المُعَطّر وجلست أمام واجهة محل

قـــريبة، تبكـــي وترتجف مثل سعفة في المطر، حتى أخذها بعض أولاد الحـــلال إلى قريتها، الصُبح، حيث غسلتها أمي ودثرتها في الفراش، وروت لجدها - مُطلَق الجالس عند رأسها - ما حدث، فانتفض صائحاً بالعائلة: "إذا نـــبح علـــيك الكلب فلا تنبح عليه، ولكن إذا عضك فعضّه". ذلك القـــول الـــذي أصبح حكمته في الحياة واشتهر به بين القرى منذ طفولته، حين كان يداوم على دروس الملا عبد الحميد، حاملاً حقيبته القماشية التي صـــنعتها له أمه، بعد أن قصت النصف الأسفل لكيس الرز وطرزت على جانبه طفلاً مجنحاً وخاطت له حمالة يعلقها على كتفه. كانت حقيبة تتدلى تحـــت إبطـــه وفيها نسخة من القرآن ودفتر رمادي الأوراق ورغيف خبز وحفنة تَمْر ورأس بصل.. مثل حقائب كل أولاد القرى الذين علمهم الملا عبدالحمـــيد القرآن. وذات مرة، اعترضه كلب في طريقه إلى المسجد. نبح الكلـــب علـــيه فهرول، وهرول الكلب خلفه، ركض فركض، ثم توقف ليلـــتقط حجراً، لكن الكلب اعتلى ظهره، فاستدار إليه وتصارع معه على الأرض. خمّش الكلب رقبته وعض ساقه، وازداد نباحاً وشراسة على وقع الـــضربات، وفي فورة العراك وجد مطلق رقبة الكلب أمام وجهه فعضها بقـــوة أســـكتت الكلـــب وأسكته سوى من صوت خفيض خجول: "عُووو.. عووو"، وانصرف سابلاً ذيله دون أن يلتفت، فيما واصل مُطلَق طريقه إلى المسجد وهو يعرج. سأله الملا عن تأخره وعن هذا الدم، فأجابه وســـط عـــيون الـــصغار: "نبح عليّ الكلب فلم أنبح عليه، ولكنه عضني فعضضته". صمت الملا قليلاً ثم ابتسم وقال: "صفقوا له". وأنـــزل عمامته وربط بها ساق مُطلَق، ثم أعطاه حفنة أخرى من التَمر وربت على كتفه.. ومـــنذ ذلـــك الـــوقت اشتهرت حكايته وأصبح يُفاخر بها، معتبراً ما قاله حكمـــة هو مُكتشفها، ممهورة بتكريم الملا عبدالحميد له، "ألف رحمة على روحك يا ملا عبد الحميد".

انتفض جدي مُطلَق، الذي يعتز بحمله لاسم جدنا الأول، ونادى على أولاده التسعة وأحفاده وأخوته وأولادهم وأحفادهم وأولاد عمه وأولادهم وأحفادهم، وقال لهم: "جهزوا أسلحتكم وسياراتكم كي نهجم على تكريت ونُخرج نوح من الحبس، فلو سكتنا على البَعْصَة سيركَبوننا". فسارع الجميع لإخراج الهراوات والسيوف والخناجر والفالات والبنادق والمسدسات من خلف دكات الفرش ومن المزابل حيث كانت مدفونة. وأشارت أمي إلى بقعة في جدار بيتنا الطيني كي أحفرها بعد أن أنزلت لوحة (آية الكرسي). ناولتني فأس حطبها قائلة: "اضرب هنا". فرحت أضرب الحائط.. وأضرب حتى ارتطم الفأس بمعدن. وقالت: "استخرج هذا الصندوق". فوسعت دائرة ضرباتي التي أصبحت نقراً خفيفاً حتى أدركتُ حدود الصندوق فأخرجته. صفيح صدئ. وعلّقت بحنان: "الصندوق هدية جدتك لنا في العرس وما فيها هدية جدك وأعمام والدك". ثم أضافت: "اذهب به إلى جدك". كان ثقيلاً، ولولا الظلمة وقصر المسافة لفتحته في الطريق، لكنني تصبرت حتى وضعته أمام جدي المحاط بخمسة من أعمامي وأحد أخوالي، ففتحه وأخرج منه بندقية مفككة ومسدسين ملفوفين بأقمشة رطبة بفعل زيت الشحم النفطي الذي كسا الأسلحة.

كان الأقارب يتقاطرون إلى بيت جدي حيث التوتر يشد الوجوه والمحادثات. قهوة مرّة وذكريات معارك واستنفار رجولة، وحكاية جدي صغيراً مع الكلب وحكمته تعاد ويتم استلهامها. خططٌ على ضوء معلومات ناقصة من بعض الذين زاروا تكريت مؤخراً، لأن جدي لا يعرف عنها الآن شيئاً وقال: "كنت أعرفها منذ كانت قرية صغيرة، ترابها أحمر، مليئة بالجرذان وبعض رعاتها يتاجرون بالجحاش.. فأين الحَبس؟". قالوا لا نعرف بالضبط فقد كثرت فيها العمارات ومراكز

الشرطة.. مصطفى يعرف لأنهم قد سجنوه هناك قبل سنتين حين شتم الحكومة في سوق الغنم. قال: هاتوا مصطفى.

لم ننم في تلك الليلة؛ اجتمع كل آل مطلق ومن تزاوج معهم من أهل القرية، حتى اكتظ البيت والباحة بالرجال وهم يهيئون أحزمتهم ويحشونها بالرصاص. اليشامغ على الأكتاف والأيدي تستعيد تعارفها عبر مصافحتها لمفاصل الأسلحة، فيما تنشغل النساء بالطبخ وجلب المخفي من العتاد في صرر الثياب القديمة.. والهمس عما جرى لإستبرق.. والرهبة.

الأطفال يلعبون لعبة الحرب، وكلما توقفوا للاستراحة تفحصت نظراتهم الأسلحة بين أيدي آبائهم وحاولوا لمسها عبر الجلوس المُهذب جوار الآباء حتى يغفلوا أو ينشغلوا بالحديث. بعضهم توسل بأمه أن تقول لأبيه أن يصطحبه معه، لكن الأم تنهره بحدة حاسمة: "وين تولي؟ هذه نار كبرى وليس لعب جهال". وحين طال الليل نام الأطفال في أحضان أمهاتهم أو على أفخاذ الأباء أو على العشب. وجلس الرجال في مجموعات صغيرة، فيما جدي يُذكرهم بغزوات المسلمين الأوائل ويقرأ القرآن حتى صاح أول ديوك الفجر، فنهض آمراً برفع الآذان وصلى بنا جماعة. كان عمري حينها سبعة عشر عاماً وأُحسَب من الرجال.

ركبنا السيارات وانطلقنا رتلاً لنصل مع أول الصباح. طوقنا مبنى المحافظة. أطلق عمي رصاصة في الفضاء خرج على إثرها المحافظ بيجامته المخططة بالأحمر في الشرفة خلف أصص الورد. أطل علينا ثم غاب وأعطى الأوامر لمن في الداخل بالاتصال بالشرطة والقيادة. عاد للظهور في الشرفة مرة أخرى، لكن، ببذلة أنيقة وربطة عنق، فهمس جدي في أذن عمي الذي صرخ بالمحافظ بعدها: "أعطونا نوح الآن..

وإلا هدمنا المحافظة على رؤوسكم". هتف المحافظ بارتباك: "تفضلوا بالدخول.. تعالوا نتفاهم يا جماعة". قال جدي لعمي، قل له: "ليس بيننا ما نتفاهم عليه، أعطونا نوحنا ونرجع إلى بيوتنا". صاح عمي بالعبارة ضاماً كفيه حول فمه كقمع ليرتفع الصوت. فأجاب المحافظ بعد أن دفع إلى الداخل طفله الذي خرج يفرك عينيه: "أي نوح؟.. أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثون؟". لكز جدي عمي في خاصرته وسارا صعوداً لدرجات واجهة المبنى حتى اختفيا في عتمة البوابة، وغاب المحافظ من الشرفة أيضاً حين رآهما يدخلان. وما هي إلا عشرة دقائق انتظار حتى وجدنا المدرعات وسيارات الشرطة تطوقنا، وفي السماء تحوم طائرتان مروحيتان، ومكبر صوت ينادي علينا من جهة لا نعلمها، ربما من كل الجهات ومن السماء ومن الأرض ومن خلف أصص الورد في الشرفة: ألقوا بأسلحتكم وسلّموا أنفسكم. فرد أحد ملثمينا برصاصة ليصطخب الجو بعدها بلعلعة الرصاص بيننا وبينهم. عرفنا فيما بعد أن الذي أطلق الرصاصة الأولى هو ابن عمتي (صراط) الذي يحب أختي إستبرق. لذا كان أشدنا حماسة وغضباً حتى أصابتنا عدواه فرحنا جميعاً نطلق الرصاص على المدرعات بصخب إلى أن غيّبتنا قنابل الدخان التي أسقطتها الطائرات، فساد الصمت إلا من السعال والشتائم المتبادلة، التي تواصلت حتى وجدنا أنفسنا في الظلمة. كل واحد في زنزانة. نتلقى الصفعات والركلات والسياط والشتائم، ولا نستطيع الرد بشيء سوى التوجع. كلما ازداد تعذيبهم لي ازداد تفكيراً بجدي وخشيةً عليه. كنت أسألهم عنه، فيجيبونني بالضرب ولم يسألوني شيئاً، فأقول لنفسي: سيموت حتماً لو فعلوا به ما يفعلونه بي. فمن شدة الأوجاع تخدر جسدي ولم أعد أقوى على الحركة. غبت عن الوعي لمرات كثيرة تحت الضرب... أصحو على رشقات ماء

بارد وشتائم.. حتى ظننت أنني مقيم هنا في العذاب منذ أعوام.. أم أن هــذا هو عذاب القبر الذي كان يحدثنا عنه جدي؟.. فأتمنى أن يكون الأمــر مجرد كابوس سأصحو بعده على إفطار أمي من القشطة والزبد والخبز الحار والتمر المقلي بالزيت والشاي المُهيّل. لكننا عرفنا فيما بعد أن التعذيب قد كان ليوم واحد فقط فلقد حملونا ليلاً والقونا جثثاً آنّة مُدماة فوق بعضنا في أحواض شاحنات عسكرية بعد أن حلقوا رؤوسنا وشــواربنا جمــيعاً. سارت الشاحنات وسط رتل عسكري من تسع ســيارات مسلحة حتى وصلت القرية في منتصف الليل، حيث كانت عوائلنا بانتظارنا على سطوح المنازل برفقة القلق.

توقــف الرتل وسط القرية، حيث الساحة الواسعة أمام المسجد، تلك التي نلعب فيها (المحيبس) و(الخويتيمي) في ليالي رمضان الصيفية، وتقام فيها مآتم القرية وأعراسها وسباق الخيل والحمير والركض داخل أكــياس القطــن المربوطة فوق السُرر والقفز العالي والعريض. ترجل الشرطة والعساكر بأسلحتهم وانتشروا في الساحة فيما راح أربعة منهم ينــــزلوننا حَمــلاً من الأذرع والسيقان، وقبل أن يرموا بأحدنا على الأرض اقتــربوا بــه إلى الــضابط النقيب ليسحب من الجيب البطاقة الجديــدة الــتي أصــدروها له.. مبدلين ألقابنا جميعاً من (المطلق) إلى (القــشمر). وكلمــة (قشمر) في العامية العراقية توحي بالاستخفاف والاستهانة والإهانة وتسِم من تُطلق عليه بالغفلة أو الغباء. وفي قواميس اللغــة الفصحى، التي قلبتها لاحقاً، تعني: القصير، الغليظ المجتمِع بعضه علــى بعــض. سمعتُ اسمي وأنا محمول: سليم نوح القشمر. ثم أُلقيت علــى الأرض فآلمني ظهري. قالت أمي أول صحوتي: "كنا نستلمكم جثــثاً مــع الهــوية والرعب يخرسنا". قلت: وجدي؟ قالت: بخير، لم يضربوه كثيراً، لكنهم حلقوا لحيته وشاربه ورأسه مثل الجميع.

عـــرفنا في اليوم التالي أن ثلاثة رجال منا قد قُتلوا – جدي يقول استشهَدوا – أثناء الاشتباك وسط الدخان أمام المحافظة، ولم يُصب أحد مـــن الشرطة. في اليوم الثالث استطعنا نحن الشباب أن ننهض ونتحرك فـــزرت جدي على الفور لأجده في أوج قوته وغضبه. يفكر بالاتصال بأصـــدقائه من شيوخ العشائر والقرى الأخرى ممن تعلموا معه القرآن علـــى يدي الملا عبد الحميد، كما يفكر بالاتصال بأصدقائه من شيوخ عـــشائر الأكراد في مخمور وأربيل والتركمان في كركوك والشبك في الكوير وأصدقائه من اليزيديين في سنجار الذين كانت تربطه بهم علاقة ثقـــة طويلة أيام متاجرته بالبصل، كما فكر برفاق قدماء من المسيحيين في قـــرقوش وتلكـــيف الذين شاركوه القتال أيام الإنكليز، وسادة في النجف وكربلاء يعرفهم أيام كان يسافر إلى هناك ليجلب بعض الكتب وأصدقاء من البصرة أيام عمله في الموانئ.

كـــان جدي يفكر بمعاودة الهجوم مرة أخرى ويبدو أن الحكومة قد علمت بهذه الاستعدادات فأعادوا أبـــي إلى قرية الصُبح عند الصبح حليق الرأس واللحية والشاربين، وقد شُلت ساقه اليسرى والتوت قدمه وتورمت محترقة لكثرة ما أوصلوها بالكهرباء.. وحين كان يطلب منهم تحويل السلك إلى اليمنى، على الأقل، كانوا يضعونه على خصيتيه حتى اكـــتوتا.. لقـــد تأخر شفاء أبـــي وحين شفي صار أعرج ولم ينجب بعدنا نحن الستة الذين كنا. وكف عن حلمه باثني عشر ولداً.

قـــال لـــه جـــدي: لقد عضَّكَ. أجابه أبـــي: سأعضّه. فسأله: كـــيف؟. قـــال بعـــد أن أخرج من جيبه رصاصة مسدس الفتى، التي جعلـــها، لاحقاً، ميدالية في سلسلة مفاتيحه: سأُدخِل الرصاصة المتبقية فيه، قال "فيه" ولم يقل "في مؤخرته" لأنه لا يجرؤ على ذكر كلمة نابية أمـــام جدي أبداً أبداً.. سأحلق رأسه وشاربيه، وسأكتب على جبهته

بالوشم أو بالكيّ (قشمر). قال جدي: متى؟. أجاب أبـــي: لا أدري، ولكنني سأفعل ذلك حتماً. أتاه جدي بالقرآن وقال: أقسم على ذلك. فوضـــع أبـــــي يده على الكتاب وأقسَم راضياً عما عزم عليه بعد أن استـــشعر الرضا في صوت جدي. وأضاف: لقد أخذ البدوي ثأره بعد أربعـــين عاماً وقال لقد تسرَّعت. كان أبـــي يقصد جِديّة عزمه على تنفيذ قسَمه مهما طال الزمن.

لاحظـــنا بعدها أن الآخرين من أهالي القرية، من غير المنتمين إلى عـــشيرتنا، قـــد راحـــوا ينادوننا بالكنى وليس باللقب كما هو معتاد، فأدركـــنا أنهم يفعلون ذلك أمامنا فقط، احتراماً لمشاعرنا أو خشية من عنفـــنا، لكـــن أطفـــالهم ينادون أطفالنا، صراحة، بـــ (القشامر) عند الخصومات، وهم فيما بينهم يستخدمون اللقب الرسمي الذي سجلته لنا الحكومة في البطاقات. فقرر جدي، الكاره للنفاق، أن نرحل إلى مكان خاص.

وبعـــد أسبوع من التفكير أمضاه محدقاً عبر نافذة مضيفه إلى نهر دجلة حيث جبل مكحول في الضفة الثانية، مكرراً صلوات الاستخارة قبل نومه. قال: إلى هناك. فجمعنا حوائجنا ووضعناها في الزوارق ليلاً. وحـــين صرنا وسط النهر صاح بنا: ارموا بكل راديو وتلفزيون ومزقوا كل أوراق الحكومة وألقوها في النهر. ففعلنا شاعرين بخلاصنا من عبء غـــامض كـــان يخنقنا. وزغردت امرأة حين رأت الحماس على سلوك الـــرجال وتعليقاتهم، فمنهم من قال تهكماً: ستصلهم مزق أوراقهم في النهر، فليشربوا نقيعها. وضحك، وضحك الجميع.

كـــنا أقل من مائة إنسان وبضع قطط وكلاب ودجاجات وحمير وحـــصان واحد. حين وصلنا الشاطئ وسحبنا قواربنا على الرمل حتى اســـتقرت، ووقفـــنا جمـــيعاً تحت ضوء القمر نتلفت حولنا، تحف بنا

أصوات الأمواج وحفيف الأشجار وعواء بنات آوى ونقيق الضفادع وصرير الجنادب في الدغل القريب.

قال جدي: كونوا آل مطلق يداً واحدة، تراحموا فيما بينكم، راعوا بعضكم بعضاً وارعوا نساءكم ودوابكم.. وإياكم والمنافقين للحكومات، لا تصدقوهم ولا تصادقوهم ولا تتزاوجوا معهم. ابنوا عالمكم هنا وفق ما يريد الله وما تريدون، لا تطلبوا من الحكومة ورقة ولا صَدقة ولا مال.. أما الضروري من النفط والدواء فاشتروه من أهالي قرية الصُبح بالمقايضة دون أن تخوضوا معهم في حديث أو تسألوهم عن شيء.. ولا تنسوا ثأركم أبداً - ناظراً إلى أبي - حين يزداد عدد الرجال فيكم على السبعين.. بعدد أصحاب رسول الله في معركة بدر وبعدد أصحاب الحسين حفيد رسول الله في كربلاء، اشرعوا في تفجير أعمدة الحكومة، واضربوها بيد من حديد حيث ما استطعتم. واحملوا وصمة لقب القشامر حتى تثأروا.. لأني أخاف أن تنسوا حقكم إذا تناسيتم الاسم الشتيمة. وليكن القرآن مدرستكم والصيد والسباحة رياضتكم والحق محور حديثكم والحرية هدفكم والصبر أسلوبكم والصدق لسانكم والعمل ديدنكم والذكرى قاعدتكم.. لا تركنوا للنوم إلا مرغَمين. وحرمتُ عليكم أكل نتاج المصانع وخدمة الحكومات الظالمة ولباس الشرطة ودم بعضكم على بعض.. فهيا إلى بناء قرية نسميها اليوم بالقشامر كي لا ننسى ونسميها بعد الثأر (الأحرار، أو الكرامة، أو المُطلق).. اللهم أدم علينا حبنا للحرية وكرامة ابن آدم، وأمِتنا كما تريد أو كما نريد لا كما يريدون.. آمين يا رب العالمين.. ورددنا جميعاً بطقوسيّة صادقة.. آمين. فتردد الصدى في الجبل والغابة وانعطافة النهر وسط سكون الليل.. آمين متضخمة كصوت ملايين الحجاج أو جيش يتأهب للحرب..

فــزادت رهبة الصدى وحماستنا من حماسة جدي فواصل الدعاء تاركاً لــنا فسحة من الصمت بعد كل عبارة كي نُؤمن عليها: اللهم إنا نعوذ بك من العجز والكسل (آمين)، ونعوذ بك من الجبن والبخل (آمين)، ونعــوذ بك من الدَين وغلبة الرجال (آمين)، ونعوذ بك من الفقر إلا إلــيك ومن الذلّ إلا لك ومن الخوف إلا منك (آمين)، ونعوذ بك من شـــر الخَلــق وهَم الرزق وسوء الخُلق.. ونعوذ بك من شماتة الأعداء وعضال الداء وخيبة الرجاء يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين. (آمين.. آمييين).. ثم حملنا أشياءنا وتوغلنا في الغابة، كلٌ يبحث عن بقعة ليبني فــيها بيته الجديد.. وما زلتُ أسمع صدى تلك الــ (آمين) النادرة في رهبتها حتى اليوم.

## - 2 -

كنتُ أحب والدي دون أن أفهمه. أستشعر فيه أكثر من نوح واحد يجيد الموائمة بينهم. أما أمي فقد كان ازدواجها واضحاً مما يدعو لمحبتها بيسر. لم أدرك عظم محبتي لها إلا أيام غيابي عنها في الجيش والآن في الغربة، ذلك أننا كنا نجدها حاضرة دائماً لامتصاص غضبنا ومشاركتنا الألم والفرح وضامنة لنا تهيئة الطعام وغسل الملابس والتذكير بالواجبات ونقل أوامر كبارنا لصغارنا ومنع الكبار من ضرب الصغار وتهدهدنا للنوم على إيقاع حكايات الأميرات العاشقات والسعلوات والخنافيش والطناطل والسندباد. فيما لم أسع يوماً لفهم ابنة عمي عالية. أحبها بلا سبب وبلا شروط، لأنها، هي الأخرى، قد أحبتني بلا أسئلة صعبة.. لقد تعلمتُ ذلك منها، على الرغم، من أن الجميع كانوا يرون في جدي مُطلَق نموذج المعلم الوحيد، لكنني أدرك الآن بأننا جميعاً لم نأخذ عنه شيئاً تجوهَر في أصل ذواتنا، بمقدار قوة اتخاذنا له معيارنا الضاغط والنديّ الذي يجبرنا على نحت ذواتنا الخاصة في الخفاء.

أبي أكبر إخوته لذا قد وقع عليه العبء الأكبر من العمل ومن ممارسات جدي لتصوراته عن التربية الصارمة وتغذيته بمفهوم الطاعة العمياء للوالدين، "لأن رضا الله من رضا الوالدين". فلم يرفض نوح طلباً أو أمراً لوالده أبداً أبداً. أذكرُ، مثلاً، أنه قد عاد ذات ظهيرة تموزية منهكاً من عمله في شركات النفط في كركوك، وبما أن من عادته الدخول أولاً إلى صالة الضيوف للسلام على جدي الذي يقيم فيها

وحيداً مع كتبه منذ موت جدتي، ثم يأتي إلى البيت يقبلنا ويصافح أمي. في تلك الظهيرة أمره جدي أن يذهب لإصلاح مضخة الماء العاطلة في المزرعة، فترك حقيبته هناك وتوجه فوراً إلى الحقل دون أن ينعطف إلى البيت ليسلم علينا أو يستحم ويرتاح ويتناول غداءه، كما هي عادته. ولم يعد إلا بعد أن أصلحها عند غروب الشمس. أبي لم ينظر في عيني جدي أو حدق في وجهه على الإطلاق. دائماً ينظر إلى الأرض مستمعاً إلى كلامه بانتباه، تجاوز عمره الأربعين عاماً وهو يقول إنه يستحي من النظر إلى وجه أبيه. وسألني ذات يوم هادئ قرب شاطئ النهر، بنبرة تشبه الفضول والتوسل: كيف تنظر أنت إلى وجهه؟.. هل نظرت في عينيه؟.. هل نظرت في عينيه؟!.

وأود لو أسأله الآن: فكيف قتلته إذاً؟!. وكيف وصلت إلى هنا؟.. متى؟.. ولماذا جئت إلى إسبانيا تحديداً؟. هل جئت تبحث عني مثلاً؟. لكن احتضانه الأول لي كان حيادياً، إن لم أقل بارداً!. وكأنه لم يكن راغباً به!.

وجدت أبي صدفة ليلة السبت الفائت في مدريد، حيث يدب الضجر إلى نفسي نهايات الأسابيع فأدب في الشوارع والأزقة المظلمة بلا هدف، أدخل أي مرقص أو بار، فلم أصدق نفسي و لم أصدق ما رأيت في مرقص يغص بمختلف الجنسيات من مهاجرين وسائحين وأسبان طبعاً، هيبين ومثليين ومهمشين وتجار دخان وأبناء ليل وأنصار سلام وعنصريين ومعارضي عولمة وحليقي رؤوس.

هذا الرجل حليق الشاربين. صَلع خفيف فوق الجبهة. طويل الشعر مربوطه إلى الخلف وخصلتان صغيرتان منه مصبوغتين بالأحمر والأخضر. ثلاث حلقات فضية تتدلى من أذنه اليسرى؛ أقراط.. أيُعقل أن يكون هذا أبي!؟.. أهذا هو أبي حقاً؟!. فأراني ميدالية مفاتيحه

التي اعتدنا على مشاهدهًا منذ ما بعد حادث هجومنا على مبنى محافظة تكريت. الميدالية: رصاصة مسدس صغيرة، كان قد أفرغها من البارود وأدخل في قفاها رأس سلسلة المفاتيح. بقيتُ صافناً في وجهه متشككاً، فسارع بالكشف لي عن قدمه العرجاء. عندها تيقنتُ.. وتعانقنا.

متى؟ وكيف؟ ولماذا جاء أبي إلى مدريد؟؟.. دوختني هذه الصدفة/اللقاء على مدى ثلاثة أيام. وبعدها رحت أستعيد هدوئي وأهضم المفاجأة راضياً بإلغاء اللامعقول، معاوداً التحديق في لوحات سلفادور دالي كي أعرف الواقع. فمنذ هروبي خارج أقواس العراق قبل عشرة أعوام وطّنت نفسي على النسيان حتى توطّنت، دون أن أدرك أنني كنت أنفذ قرار قريتي الأخير بالانحلال.. لا رسائل بيني وبينها، لا أخبار عنها إلي ولا عني إليها. كان أبي آخر من رأيته هناك، رأيته من نافذة المضيف دون أن يراني، وغادرت مع الفجر دون وداع. بعدها لم أرَ أحداً من قريتي وأقنعت نفسي حد اليقين بأني لن أرى أحداً منها، لن تراني ولن أراها أبداً.. فحتى لو أردت ذلك فلن تقبلني هي لأنني قد خنتها حين هجرهًا سراً بعد أن تعفنت السبع عشرة جثة فيها وأصبح هواؤها لا يطاق. لذلك ظللت بعدها أتحاشى الروائح الكريهة لأنها ستذكرني بكل التفاصيل التي أسعد بنسيانها التام أحياناً. أرمي أكياس الزبالة قبل امتلائها. أختار الطوابق الرابعة للسكن بعيداً عن المجاري الآسنة في الأرض. أرش العطور في الحمام وتحت إبطيّ. أتحاشى المرور جوار شرطي أو وزارة ولا أتابع الأخبار في وسائل الإعلام.. لكن أبي أحضر كل شيء بحضوره المفاجئ هنا، وعبر ترديده الدائم لعبارة ما كنت لأتخيله ينطق بمثلها وهو المهذب الخجول المتديّن: "هذا العالم جايف".. وحين أرضخ للاستحضار وأسأله عن قريتنا (القشامر) يقول: "كل العالم قشامر".

مع أبـــي بدأت قرية القشامر، وعلى يديه تم إنقاذها من الدخول إلى ســـراديب الأمـــن العام ثانية، وبموت (أو ربما بقتل) جدي أنهاها، وعلـــى يديه تبدأ من جديد، هنا في مرقص مدريدي مظلم كتب على بابه (Discoteca Al-Kashamer) وتحتها بخط أصفر: "في البدء كانت الحرية ونريدها أن تكون حتى النهاية". وتحتها، بحجم الخط نفسه لكن بلون أزرق: "سنرحب بك أكثر كلما تحررت أكثر".

أريـــد أن أسأله عن أشياء كثيرة: أمي وأخوتي وأصدقاء طفولتي وقريتنا بعد السبع عشرة جثة، وعن ابنة عمي عالية.. لا.. إن عالية قد غرقت في النهر.. فلماذا لا أريد تصديق ذلك على الرغم من أنني رأيتها بنفـــسي؟!.. أريد أن أسأله: هل قَتلَ جدي حقاً؟.. لكنه مازال قليل الكـــلام، وكلمـــا ذهـــبت إليه في المرقص ليلاً وجدته محاطاً بشلة من أصـــحابه الأسبان والهولنديين والألمان والإنكليز. أغلبهم قد حلقوا أو صـــففوا أو بعثـــروا شَعر رؤوسهم بأشكال غريبة ولطخوها بأصباغ فاقعـــة، تتدلى من أحزمتهم حفنات المفاتيح وسلاسل شبيهة بتلك التي تـــربط الكلاب المنـــزلية. تُرصّعهم المعادن في كل جزء من ملابسهم الغـــريبة وتـــتدلى مـــن آذانهم وأنوف وسُرر بعضهم حلقات فضية أو بلاســـتيكية، بمن فيهم أبـــي الذي يرتدي قميصاً مشجراً فاقع الألوان شـــابكاً في أذنه اليسرى ثلاث حلقات متتابعة الأحجام، لكنه لم يقص شعره مثلهم على شكل ديك أو أسد أو نعجة وإنما تركه يطول بعد أن زحـــف صـــلع خفيف على جبهته ثم ربطه من الخلف على شكل ذيل حـــصان أو مـــثل بنات المدارس صابغاً خصلتين منه إحداهما بالأخضر والأخـــرى بالأحمـــر.. أهـــذا هـــو أبـــي حقاً؟!.. المتحلقون حوله، الـــصاخبون بالـــضحك والـــدخان وصفع أفخاذ بعضهم كانوا شباباً باستثناء امرأة في الأربعين كان يحتضنها بين الحين والآخر وتُقَبله. وهي

كـــثيرة الكلام، على العكس منه، تعلو ضحكاتها على ضحك الجميع. قالـــت لي إن اسمها روسا وهي من برشلونة لكنها هنا في مدريد لأنها تحب أبـــي.

مـــرت ثلاثـــة أيام و لم استطع الانفراد به. أدعوه لنخرج معاً إلى مقهـــى أو أن يأتي إلي بيتي: أسكن هنا.. قريب، في شارع فومَنتو على بعـــد عـــشرة دقائـــق. فيقول: غداً. وحين أسأله في الغد يقول: غداً. ويعـــتذر عـــن الأمس: أنا مشغول جداً يا سليم - ولا يقول يا ابني - كما ترى، ولكنني أعدك.. غداً.. غداً.. بالتأكيد - ولا يقول إن شاء الله -. إلى أن جئته ذات ظهيرة فبادرني: تعال أحلق لك رأسك. ودون أن ينتظر إجابتي سحب مقعداً صغيراً من إحدى الزوايا إلى وسط صالة الـــرقص، وسط مخلفات ليلة الأمس، فجلست، وصاح: فطومة، هاتي ماكنة الحلاقة. فتركت السمراء غسل الكؤوس وتناولت علبة من على الرف خلفها. أتته بها: تفضل سيدي. صفعها على مؤخرتها برفق، قبل أن تنسحب: شكراً. فعادت إلى الكؤوس، وسألته: أهي عربية؟. فقال: فاطمة؟.. نعم، إنها مغربية.. فتاة طيبة.

كانـــت بقية عاملات البار، الإسبانيتان، رائحات غاديات حولنا مُذكرات روسا بالنواقص من الشراب والمناديل وعلب الدخان، ونوح يـــوزع عليهن الأوامر بالإشارات والابتسامات، فيما ماكنة الحلاقة في يـــده، في رأســـي، وصـــاحبته البرشلونية تدخل وتخرج حاملة سجل الحـــسابات ومتـــصلة بالهاتف مع شركات التزود بالبيرة والمشاريب، وطالـــبة مـــن محـــل الكرزات أن يبعث لها بعشرين كيلو من الزيتون وعشرين من الكرزات وعشرة من حَب زهرة عباد الشمس، وبسرعة، بمـــوزع الدخان ليزودها بصندوق من كل نوع، علبة قداحات وعلبة علـــوك، وبسرعة، فيأتون بسرعة وتأمر العاملات بترك التنظيف، الآن،

وترتيب البضائع. يراقبهن أبـــي متوقفاً عن قص شعري، ثم سألني حين رأى الأمـــور تـــسير على ما يرام: وأنت كيف حالك؟، ماذا تعمل؟. قلت: بخير، أعمل سائقاً في شركة لتوزيع الصحف من الساعة السادسة فجراً وحتى الحادية عشرة صباحاً. وقال: هل لديك امرأة؟. قلت: لا.

صـــاح بروسا بجملة هي مزيج من الإنكليزية والعربية، ففهمت مـــنها كلمـــة (بخشيش) التفتُ إليها لأرى وجهها يمانع عبر التغضين وغمزَة، لكنه مط اسمها مؤكداً: رووووسا. فاتجهت منصاعة إلى صندوق الحـــساب. كلنا نسمع خَرخَشة القطع النقدية. وضعت شيئاً في كف العامـــل الذي جلب صناديق البيرة. فعاود أبـــي الحلاقة وسألني: ماذا تعمـــل في الـــوقت المتبقـــي؟. قلت: أقرأ وأكتب أحياناً وأذهب إلى السينما. قال: وهل قرأت لوركا وألبرتي بالإسبانية؟. قلت: نعم ولكن شعرهما لا يعجبني كثيراً، أفضل عليهما خوان رامون خيمينيث وبيثنته ألكـــساندره. قـــال: للأسف أنا لا أتحدث الإسبانية حتى الآن، بضع كلمـــات فقـــط، ومـــاذا تكتب.. شعر؟. قلت: قصائد قليلة، أكتب القصص أفضَل، ونشرتُ بعضها في صحف المعارضة العراقية في لندن. تساءل باستغراب: معارضة؟!.

فكـــرت أن استثمر مدخل الكتابة لأسأله عن كتب جدي، عن قريتنا وأمي وإخوتي وأصدقاء طفولتي وابنة عمي (لا.. ابنة عمي ميتة) ومقـــتل جدي فقلت: أفكر بكتابة رواية عن قريتنا، ولكني متردد في فـــضحها. قال: أكتب ما تشاء فلن يحدث أسوأ مما حدث.. هذا العالم جايف.

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أبـــي ينطق بكلمة كهذه. أدركت لحظتها بأن تغيرات كثيرة قد طرأت على شخصيته، وأنه يُخفي الكثير، وثمة تجارب مهمة قد مرّ بها في السنوات العشر الماضية التي افترقت فيها

عـــنه.. أردت أن أســـأله عن كيفية وصوله إلى هنا، وعن روسا هذه. لكنه صفع رأسي مداعباً وقال: خلاص انتهت الحلاقة.. هيا اذهب إلى الحمام واغسل رأسك.

حـــين مـــررت من أمام البار ابتسمت فاطمة، شفتاها مثل تينة مقـــسومة كمـــا يقول هيرمان هسة في (سدهارتا)، وعيناها سوداوان واســـعتان، كثافة رمشيها تزيد من حدودهما سحراً وهي تمسح كأساً بـــصدريتها، فابتسمت لها أيضاً دون نسيان صفعة أبـــي لمؤخرتها قبل قليل. دخلتُ الحمام ففاجأتني صورتي في المرآة حليق الرأس، حلاقة رقم واحـــد، أو صفر؟.. مثل بعض أصحابه وبعض زبائنه الليليين. تلمست رأســـي كمن يتحسس بيضة غريبة، فلم أقص شعري بهذا الشكل إلا حين حلقوه لي أيام الجيش غصباً.. حيث ملامح العريف خزعل منتشية بحلاقـــة شـــعرنا أول دخولنا للمعسكر. كانت رؤوسنا بين يديه لعبة مـــسلية يحـــركها بعنف، بفظاظة ومَرَح، إلى كل الجهات كأنه يتعمد استفزازنا.

شـــعرت بغربة شكلي عني للحظة فعزمت ألا أفكر بالأمر طويلاً لأن الذي يهمني هو الانفتاح على أبـــي والتقرب منه. أنـــزلت رأسي في حـــوض المغـــسلة تحت الحنفية وسكبت عليه الماء البارد أغسله، ثم رفعته باحثاً عن قطعة صابون فلم أجد. لذا عاودت إنـــزاله تحت خيط الماء، وقلت: هذا كاف لإنـــزال بقايا الشعر المقصوص فقط، وسوف أســـتحم حين أعود إلى شقتي. عندما رفعت رأسي مرة أخرى وجدت فاطمـــة تقف إلى جانبـــي مبتسمة في المرآة، وفي يدها منشفة مدتها لي قائلة: "نعيماً". شفتان بارزتان، وسط سمرتها الخفيفة، شبيهتان بالرسوم الأفـــريقية، وعينان واسعتان مؤطّرَتان بالكُحل وسواد الرمشين. قلت: شـــكراً. وحاولت النظر إلى صدرها فهو أشد ما يشدني إلى النساء منذ

عشقي الأول لابنة عمي عالية التي كانت تدهن لي نهديها بالتمر كي أمصهما. لكن فاطمة استدارت عائدة إلى غسل الكؤوس فرأيت مؤخرتها المرفقة بمشهد كف أبي الصافعة له برفق.

نشّفتُ رأسي ونظرت في المرآة. قلت: ليس سيئاً تماماً. وخرجت. فقال أبي من زاوية دكة الموسيقيين وهو يرتب أسلاك الميكروفونات: هل تريد أن أصبغه لك بالأشقر؟. سمعته جيداً لكنني تساءلت: ماذا؟. قال: أصبغه لك بالأصفر مثلاً؟. قلت: لا.. هذا يكفي.. هكذا جيد. وأضفت: أنا ذاهب، هل تأتي معي؟.

تناول المكنسة التي في الزاوية وقال: لا.. أنا مشغول الآن.. دعها إلى وقت آخر.. غداً مثلاً.

قلت: حسناً.. أنا ذاهب إذاً.. شكراً على الحلاقة. واقتربت من البار، أعطيت المنشفة لفاطمة وأنا أنظر إلى عينيها، وإلى.. لم أتمكن من رؤية صدرها أيضاً لأنها كانت تمسح كأساً بصدريتها: شكراً. وابتسمت. اقترنت بها صورة أبي يصفع مؤخرتها. أراها فأراه. وعند الدرج الصاعد إلى باب الخروج كانت روسا تواصل توجيهاتها للفتاتين بأماكن التنظيف وتصفيف صناديق الأشياء القادمة. ودعْتهن، وصاحت بي قبل أن أبتعد عن الباب: تعال أيضاً في المساء.. ستكون السهرة جميلة. قلت: لا أدري سأرى، إلى اللقاء.

سرت في الزقاق المؤدي إلى تقاطع سانتو دومينغو قاصداً عبوره باتجاه بيتي، فيما يحتل أبي رأسي بـ "هذا العالم جايف" وبكفه الصافعة لمؤخرة فاطمة.. كيف يفعل ذلك وهو الذي جرنا لمحاربة الحكومة لمجرد أن أحدهم قد صفع مؤخرة أختي إستبرق؟!. أحاول تجميع ما أتذكره عنه كي أفهم هذه التحولات.. بالتأكيد هو أبي؛ الصوت والجسد الطويل المتين بالعضلات والقدم العرجاء والميدالية

الرصاصـــة و.. أردت تـــرتيب كل ذلك لذا دلفت إلى مقهى في آخر الـــتقاطع. جلست أمام النادل واتكأت على منصة البار. طلبت قهوة بالحليب وكأس ماء. أخرجت سيجارة أدخنها بعمق حقيقي. شاهدت وجهي في المرآة المقابلة محصوراً بين قنينتين، فتحسست رأسي دون أن أنـــشغل بالحلاقة الجديدة طويلاً لأن الذي يشغلني هو أبـــي.. الجديد. أحـــاول تفسير ما يحدث وتهيئة نفسي لتقبله باتساع وواقعية.. إنه هو أبـــــي دون شـــك.. أتذكر كل علاقتي به جيداً.. أعرف شخصيته السابقة التي تركتها في العراق، في قريتنا قبل عشرة سنوات.. إنه أبـــي وإن كان يبدو الآن شخصاً مختلفاً تماماً.. إهدأ يا سليم.. نعم.. فلأهدأ قليلاً.. وأحاول ترتيب الصورة..

## - 3 -

مثل بقية إخوتي، لم أناده بأبي حتى بلغت العاشرة حين استطعت التمييز، فقد كنا نناديه باسمه: نوح. بينما نقول لجدي: يا أبي. ذلك أن جدي هو الحاضر معنا في البيت أما أبي فكان غائباً للعمل في شركات النفط في كركوك. لا يأتينا إلا في اليومين الأخيرين من كل أسبوع حاملاً حقيبته المليئة بالهدايا وكتباً أجنبية وملابس متسخة. تقول أمي، عندما تريد حثنا على العمل، انظروا إلى والدكم، كان فتى في سنكم حين بدأ يشتغل في كركوك.. أتذكر ذلك اليوم؛ بعد زواجنا بشهر ويومين تماماً. منذ أكثر من عشرين سنة؛ بدأ كحارس ليلي، ثم حداد، ثم ميكانيكي، وبعد تفوقه في دورات اللغة عينوه رقيباً على العمال أو بمثابة مترجم وسيط بين السادة الألمان والعمال العراقيين. لم يحرص نوح على إفهامنا طبيعة انتسابنا له فقد كان مُوكلاً أمر تربيتنا إلى جدي مثلما ظل موكلاً شخصيته الخاصة إليه وطاعته حتى موته، (أو قتله له..!)، كذلك لم يقدمني هنا، في مرقصه، على أنني ابنه وإنما قال: سليم. فقط. وربما أن روسا هي وحدها من أعلمها بذلك لاحقاً حيث أخذت تعاملني بمودة خاصة بل وزائدة أحياناً.

أبي.. أو نوح ضخم الجثة قوي العضلات هادئ الطبع، أما جدي فشيخ نحيف يتكئ على عكاز لامع من الخيزران في رأسه رأس نسر بعينين من خرز أزرق أهداه له صديق باكستاني تعرف عليه في الحج عند طوافهما حول الكعبة، لكن جدي لم يستخدم عصاه هذه إلا

بعد أن حك ملامح رأس النسر وأخفاها بحيث حوّله إلى مجرد كرة أو بيضة. وبما أنه لم يستطع اقتلاع عينيه الخرزتين فقد اكتفى بتشويههما برأس سكينة قصاصة الأظافر. قلنا: لا.. لماذا يا جدي؟!. قال: هذه أصنام. ومن يجسد صورة كائن حي سيطلب منه الله في الآخرة أن يبث فيه الروح، وبما أنه سيعجز لأن ذلك من خصوصيات قدرة الله، عندها ستحل عليه العقوبة.

أمي تقول إن جدي كان ضخماً وقوياً مثل أبي.. وهي بذلك تُطمئن نفسها على أن كرش أبي ستختفي بمرور الوقت ويعود رشيقاً.. دون أن ترى سبب نحافة الجد كونه قد أصيب بمرض السكري لهوسه بالتهام الحلوى والتمر، فلم يكن يخلو بيتنا أبداً من كيس تمر يتكئ في إحدى زواياه وعلبة حلوى أصابع العروس مدسوسة بين كتبه... كما أثر عليه موت جدتي، ثالث زوجاته، فراح يذبل وينشف شيئاً فشيئاً مثل ضرع بقرة مريضة حتى صار نحيفاً إلى هذا الحد.. لكن قوة روحه وصوته لم تتأثرا.. بل ربما زادتا، أصبحتا تعويضاً عن فقده لقوته الجسدية بتحويلها إلى أوامر يفرضها على الآخرين بقناعات صارمة لينفذوا ما يريد. وكان لخيزرانته حضوراً لا يقل مهابة عن حضوره حين يهزها، فنسمع أزيز الهواء حولها، مُهدِّداً بعنف كلما غضب أو أصدر أمراً.. كنا نخافه ونخافها على الرغم من أننا لم نره يضرب أحداً بها أبداً، وربما كان للتخيل دوراً في تضخيم مهابته أكثر مما لو كنا جربنا ضرباتها. ومما يزيد من تصورنا لبطش غضبه - عدا ذكرى عضه لرقبة الكلب صغيراً - حكاية قطعه لإصبع زوجته الأولى حين اختلفا، بعد شهر من زواجهما، رافعة صوتها المعترض ومحذرة من أن تشتكيه إلى أخيها حمد، وهي تمد إصبعها السبابة نحوه كعلامة تهديد، فاستشاط مطلق غضباً فهو متورم الاعتزاز بنفسه. أمسك

بسبابتها عند حد عقلته العليا، وتناول سكيناً كانت إلى جانبه على حافة الطباخ. قطع العقلة ووضعها في جيبها، رأس إصبع نازف بحجم حصاة أو تَمرة. ثم أركبها على حمارها الذي جلبته معها كهدية من أهلها بمناسبة العرس، وقادها إلى خارج القرية وهي تمسك إصبعها المبتور صارخة، تنظر إليه وإلى جدي.. غير مُصدقة. وجَّهَها صوب قريتها وقال: أعطي إصبعك لأخيك حمد وقولي له هذا إصبعي الذي هددتُ به الملا مطلق باسمَك.. وأنتِ طالق بالثلاث. وضرب حمارها بقوة على قفاه فانطلق مهرولاً تاركاً في آثار حوافره قطرات من دمها. لم تعد بعدها أبداً وقيل أن حمد قد قال لها: تستحقين ذلك، كيف تهددين زوجك؟.. لو كنتُ مكانه لفعلت الشيء نفسه.

أما زوجته الثانية فلا نعرف عنها شيئاً سوى أنها ماتت بالسرطان و لم تُنجِب، فيما كانت الثالثة، جدتي، هي التي منحته كل أبنائه التسعة، أكبرهم نوح. وكان جدي هو الذي يقوم باختيار أسماء أولاده وأحفاده وكل المنتسبين إلى نسله قائلاً: إن الله هو الذي اختار أسماءكم وليس أنا. ذلك أنه ما إن يُولد أحدنا حتى يتوضأ، يصلي ركعتين، ويجلس عند رأس الوليد ثم يفتح القرآن كيفما اتفق، ينظر إلى وجه الطفل أو يغمض عينيه ويضع إصبعه على الصفحة، فيكون الاسم هو تلك الكلمة التي وقع عليها إصبعه. أما إذا كانت حرفاً أو وصفاً أو ليس في الآية ما يناسب المولود من حيث جنسه ذكر أو أنثى، فيقوم بإغماض عينيه مرة أخرى ويحول الإصبع عن موضعه في الصفحة نفسها.. وهكذا، مثلاً، انفتح القرآن على أول صفحة من سورة (الإسراء) حين ولِد أبي، ووقعت إشارة الإصبع على آية: "ذرية من حَملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا". وحين ولَدت أمي توأم شقيقتي سندس وإستبرق وقع الإصبع على الآية 31 من سورة (الكهف):

"أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يُحلّون فيها من أساور مـــن ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائـــك نعم الثواب وحسنت مُرتفقا". واسم عالية ابنة عمي جاء من ســـورة (الحاقـــة) في الآيات 22-23: "في جنة عالية. قطوفها دانية". وبالنسبة لي فقد انفتح القرآن على سورة (الشعراء) ووقع الإصبع على: "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم". ولا أدري فيما إذا كـــان لـــسورة الشعراء دوراً في علاقتي بالشعر؛ قراءاتي الكثيرة له ومحاولاتي المتواصلة في كتابته، على الرغم من تلاشي الأمل في أن أصبح شاعراً ذا أهمية تُذكر.. كما كنت أحلم في صباي!، أم أن لعالية الأثر الأهـــم في دفعـــي لكتابته.. من أجلها؟. بعثت لها أولى قصائدي مع إســـتبرق فخافت مني، والسبب هو جدي، أيضاً، الذي كان يروي لنا حكايـــات الفرســـان العشاق الشعراء ويتلو بعض قصائدهم المحتشدة بالخيل والليل والبيداء والسيوف ورؤوس الأعداء المتطايرة. وربما كنت مدفـــوعاً إلى الشعر بسبب أبـــي أيضاً، الذي يحفظ (الديوان الشرقي الغربـــي) لغوته بالألمانية، وإن كان لا يفقه كل كلماته. فلقد أهداه له صديقه الألماني كريستوف رئيس قسم العمال في إحدى شركات نفط كركوك قائلاً: اقرأ هذا، إنه منا ويحب نبيكم. فحفظه أبـــي في إجازة نهايـــة الأســـبوع رائحاً غادياً على شاطئ دجلة، هازاً ذراعيه متخيلاً الأمواج والحصى وأشجار الصفصاف جمهوراً.

كـــنت حيـــنها صـــغيراً على الجرف أرقبه، وتخيلت أنه يحضر لامـــتحان، لأن أخـــي الأكـــبر حكـــيم كان يفعل الشيء ذاته أيام الامـــتحانات. في إحـــدى الـــتفاتاته، نحو جمهوره، رآني ونادى علي فنـــزلت مهرولاً حتى وصلت إليه، فجلس على صخرة ودلى قدميه في الماء. أجلسني على ركبتيه وراح يحدثني عن غوته بإعجاب ويترجم لي

بعض مقاطع كتابه. لم أفهم منها شيئاً لأنني كنت منشغلاً بالتمني؛ أن أكــون كبيراً مثله كي تصل قدماي إلى الماء، لذا أجلت عملية الفهم أيــضاً حــتى أكبر. كان أبــي يكرر: "الألمان شعب عظيم، تخيل أن كريــستوف هو رئيسي في العمل لكنه صديقي أيضاً!، وهو يقول لي: أنــتم اخترعتم طائر الفينيق بخيالكم ونحن جسدناه في الواقع.. زوجته سابينه شقراء جميلة، تكتب الشعر وتعمل معنا في النفط.. الألمان شعب عظــيم يا سليم.. شعب عظيم". ولكثرة ما تحدث أبــي عنهم كنت أتخــيلهم مثل أهل الجنة الذين وصفهم لنا جدي، أو مثلنا حين ندخلها في الحياة الآخرة: الجميع شباب، طول الشخص ثلاثين متراً، لا يمرض ولا يــشيخ ولا يموت، يأكل ما يشاء متى يشاء، يشير لأي طير بإصبعه فينــزل مــن أغــصان شجر الجنة ويحط في طبق أمامه مشوياً شهياً للأكــل. فيأكل حتى يشبع، ثم تلتم عظام الطير وبلحظة يستعيد هيئته وحــياته ويعود إلى غصنه. لا نتغوط هناك وإنما نتعرَّق عطراً، لنا صور فخمة ونساء جميلات من حوريات الجنة، إذا أطلت إحداهن الآن من السماء سيضيء نور وجهها الأرض. نضاجعهن ويعدن أبكاراً.. نغرف للشرب من أنهار من الخمر والعسل واللبن وما تشتهي الأنفس.

أبــي لا يمــل من تكرار: "الألمان شعب عظيم".. لذا تخيلتهم كــذلك. تعلــم أبــي الألمانية والإنكليزية من الأجانب في شركات الــنفط، وكان يحفظ أيضاً مقاطع من هاملت شكسبير، وبالطبع يحفظ القــرآن كــاملاً لأن جدي يحرص على تحفيظنا إياه جميعاً، قائلاً بأنه ســيكون أنيسنا في وحشة القبر ومحامياً يدافع عنا أمام محكمة الملكين ناكــر ونكــير؛ فإذا مات الإنسان ودفنوه ثم انسحبوا ليتركوه وحيداً دخل عليه الملكان يمتحنانه لذا: إن سألوك من هو ربك قل: الله، ومن هــو نبــيك قــل: محمد، وعن دينك قل: الإسلام، وعن كتابك قل:

القرآن. ومن بين كل أفراد عائلتنا وحده أبـــي مَن ظل يحتفظ بالقرآن كـــاملاً في ذاكـــرته، لذا كان جدي يستعين به حين تقدمت به السن وصـــارت تخذلـــه الذاكرة. أما نحن أبناء الأجيال اللاحقة فقد حفظنا بعض الأجزاء ونسيناها باستثناء قِصار السور والآيات المرتبطة بأسمائنا، لأن جـــدي كان يحرص على أن يعرف كل منا، على الأقل، الآية التي انبثق منها اسمه وهو يقول: إن أسماءكم قد اختارها الله، وأصلها هنا في كتابه.. انظروا. ويشير لكل منا على آيته بإصبعه كأنه يعيد عليه مشهد تسميته الذي لم يره.

وقـــد اتبع الكثيرون من أهل القرية طريقته هذه بالتسمية، فمنهم مـــن يـــصيبه الحظ باسم نادر جميل ومنهم من يجلب له اسمه المشاكل والـــتعب النفسي مثال ذلك ابن خالتي هدى الذي وقع إصبع أبيه على كلمـــة (صـــراط)، فكـــنا حين نتخاصم معه في اللعب صغاراً نناديه (ضراط)، وفي المدرسة نُضيف النقطة على الصاد كلما تمكنا من دفاتره في غيابه. لذا نشأ على عكس فطرته في الهدوء وحياء أهله؛ ولداً شرساً كـــثير التعارك، مُعذَّباً من حمله لهذا الاسم الذي لم يسترح منه إلا حين جـــاءت جثته مع جثة أخي حكيم وولدي أعمامي وولد خالتي ضمن السبع عشرة جثة التي تعفنت.

كـــنا نشاكسه ونستفزه ثم نركض مبتعدين عنه، وحين يُدرك أننا قد فلتنا من متناوله وأن حجارته التي يرمينا بها لا تصلنا، يقول بصوت عـــال وحُـــرقة: أتـــسخرون من اسم منحني إياه الله؟!.. ألا تخافون جهـــنم؟.. أتـــضحكون من الناقِش أم المَنقوش؟. فنخجل عندها فعلاً ونخـــاف الله ونستغفره. حين نتذكر حكاية جدي لنا عن رجل قال أن اسمـــه مالـــك بن دينار (ضحكنا على اسم دينار حينها فنهرَنا وأكمل الحكايـــة) كـــان ماراً في طريقه ذات يوم فصادفه حمار (أو كلب، لا

أتذكر الآن بدقة). كان مُبقَعاً بشكل غريب، بقعاً سوداء وسط بياضه، علـــى عينيه وبطنه وأذنيه وذيله، فضحك مالك.. حينها التفت الحمار إلى مالـــك ونطقَ قائلاً: أتضحك من الناقِش (ويعني الخالِق) أم المَنقوش (ويعـــني نفـــسه)؟. فخَرَّ مالك ساجداً نادماً وظل يبكي أربعين عاماً ويستغفر الله على ما اقترف من سخرية وإهانة تجاه أحد مخلوقاته.. حتى غفر له الله بعد أربعين عاماً قضاها بالنحيب ورعاية كل حمار يراه.

وحـــدها عـــبارة: "أتضحك من الناقِش أم من المَنقوش". كانت تـــردعنا عن مناكدة صراط، لكننا سرعان ما نعاود الأمر حيث ننساها ســـريعاً، وهكذا إلى أن مات وارتاح منا ومن اسمه. أحَب صراط أختي إستبرق لذا كان أشدنا حماسة يوم الهجوم على مبنى المحافظة في تكريت يوم قُتل منا ثلاثة - جدي يقول استشهدوا -، فازدادت إستبرق ذبولاً وهـــي تشعر بذنب مقتلهم، ترفض الطعام.. وكلما أجبرتها أمي على شرب حساء الدجاج تقيأته. كانت تزداد هزالاً ونحافةً بحيث كنا نراها في تواصـــل ضمورها وكأنها تبتعد قليلاً قليلاً في الفراش، كأن الفراش أفـــق، تغـــوص هـــناك وتبرز نتوءات عظام كتفيها ومفاصل الأصابع وكرتان عظميتان في رسغيها.. وكفّت أخوات صراط عن تسميتها بـــ (القَصَبة) وعن مناداتهن لصراط: يا عاشق القصبة.. "فليس من الأخلاق الشماتة بالمريض"، ثم إنها صارت أشد نحافة بكثير مما كانت عليه حين أطلقن عليها هذه التسمية.

قال جدي: دعكُم من الأطباء إذاً، ولا أمل إلا بعلاج الله، الشافي المُعـــافي، وأولـــيائه الصالحين. ولي من صحبـــي الأعزاء شيخ كردي صـــاحب كـــرامات، في قرية قرب شقلاوة، وهو من شيوخ الطريقة النقـــشبندية ويرجع نسب أجداده إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي ضرب كافراً في الهند بنعله دون أن يتحرك من مجلسه في بغداد.

فأخذناها إلى هناك؛ أنا وهو وأبـــي. كنتُ أجلس معها في مقعد السيارة الخلفي، أسندها على كتفي وأسقيها الماء فيما أستمتع بمشاهدة الحقول الخضراء الراكضة على الجانبين. وبعد عدة توقفات وأسئلة قام بهـــا أبـــي مستفسراً عن الطريق والقرية وعن بيت الشيخ، ولما كانت الإجابات حاضرة من الجميع، تأكدت لنا شهرته. صعدنا بالسيارة إلى بيـــته القائم على سفح جبل في أطراف القرية، وما إن ترجلنا في باحة داره حـــتى سمعنا دوي إطلاقة قادمة من جهة بابه، سقطَت على إثرها إســـتبرق مـــن بين ذراعي وتمددت على الأرض مغشياً عليها.. وسمعنا صرخة جدي: الله أكبر.

## - 4 -

لم أخـــرُج مـــن شقتي طوال ذلك المساء. أكلت ثلاث بيضات وسَـــلطَة، فلـــم تكن لي رغبة بالطبخ. أمضيت الوقت بالتفكير بأبـــي وبالتذكـــر محاولاً ترتيب ما حدث كي أفهم أبـــي الجديد الذي هنا. نهـــضت أكثر مرة عن سريري متوجهاً إلى المطبخ أُعِد القهوة ومدخناً للـــسجائر في الـــنافذة المطلة على فناء مربع صغير وعميق تلتف حوله العمـــارة التي أسكن فيها وتتشابك فيه، بين النوافذ، حبال نشر الثياب المغـــسولة. أمـــا قاعه ففيه بيت خشبـــي صغير لكلب إحدى عجائز الطابق الأرضي.

أنا أصغر سكان العمارة سناً، تليني شابة كوبية سمراء تسكن تحتي، أرضيتي سقفها. فيما تحتل الشقق الأخرى عجائز وحيدات إلا من رفقة كلـــب يخاطبـــنه لـــيل نهار أو من مشاهدة أخبار فضائح الفنانين في التلفـــزيون، وكن ينظرن إلي حين نلتقي على السلم بتوجس وريبة بعد موقفـــي حـــول بـــرميل الـــزبالة. وازدادت هواجسهن حين رفضت الاجتماع مع مجلس الجيران لمناقشة قضية إصلاح قفل الباب الرئيسي، حـــين قلت للبواب: لا داعي لمضيعة الوقت هذه، قم أنت بشراء قفل جديد وبتركيبه، ثم اجمع ثمنه من سكان العمارة. ذلك أنني أدركت بأن فـــائض الـــوقت لـــديهن يجعـــل من هذه الاجتماعات فرصة للثرثرة والـــشكوى وإرضاء فضولهن برؤية بقية الجيران عن كثب. قررت ألا أحضر اجتماعات الجيران هذه منذ العام الأول حين اجتمعنا ذات مساء عـــند المـــدخل متزاحمين وبعضنا يجلس على أولى درجات السلّم فيما

البواب يتابع إشعال الضوء كلما انطفأ بعد دقيقة، كان محور الاجتماع يـــدور حول برميل الزبالة، وأن بعضهم لا يدفع المبلغ المُخصص شهرياً للبواب كي يُخرجه ليلاً ويعيده فجراً.

العيون والأحاديث المطلية بالتهذيب تقصدني أنا. وعلى الرغم من طبيعتي الهادئة، وحرصي على تجنب التصادم مع أحد، إلا أنني لا أحتمل أن يستغفلني الآخرون. لذا فوجئ الجميع حين أعلنت صراحة لهم بأنني لـــن أدفـــع للبرميل، فالمؤجرون يدفع عنهم صاحب العمارة، كما هو مـــشار إليه في عقد الإيجار. أما مالكو الشقق فعليهم مشاركته بالدفع. هبت العجائز يتحدثن معاً معترضات، وبشكل خاص المالكات منهن، فـيما شكرني المؤجرون الآخرون على هذا التنبيه ومنهم الفتاة الكوبية الـــتي صـــارت صديقتي إثر ذلك. نقف قليلاً كلما تقابلنا على السلّم. نتشارك معاً بالشكوى من الديكتاتوريات الحاكمة في بلدينا. وتبث لي معاناتها هنا لعدم حصولها على أوراق إقامة قانونية، وتنقلاتها بين عمل وآخر لفترات قصيرة بلا عقود، تتحمل في أثنائها استغلال المديرين لها. دعـــوتها غير مرة إلى شرب الشاي في شقتي ودعتني هي إلى حفلة عيد ميلادها. كانت تجلب لي هدية السجائر الهافانية الغليظة كلما استقبلت أحـــد معارفهـــا الهاربين من جزيرة السُكّر، ونتبادل أشرطة الموسيقى، ونقصد بعضنا إذا نَقَص الملح أو السُكّر أو الزيت أو رأس بصل.

تـــوقفَت هـــي عن الدفع لبرميل الزبالة فأصبحت مثلي موضعاً للنظـــرات المسترِيبة من قبل العجائز اللاتي سمعتهن أكثر من مرة يلعن الحكـــومة الحالـــية لفتحها أبواب الوطن للأجانب ويمتدحن بحنين أيام فـــرانكو.. بـــل وسمعت لأكثر مرة إحداهن تغني في كل صباح النشيد الوطني القديم الهاتف بالعيش لإسبانيا، متعمدة ترك نافذتها مفتوحة كي يتـــسلل نشيدها إلى الجيران. بل وتتعمد أحياناً مدّ ذراعها خارجه على

طريقة التحية النازية. أما البواب فلم يكف عن معاملتي بمودة لأنني لم أكف عن إتحافه بالهدايا في أعياد الميلاد: قفازات، قميص، سترة، سجائر وصُحف. أذكر أنني قد أهديته أيضاً ذات جمعة بعد عودتي من المسجد علبة حلوى عربية ففرح بها كثيراً.

بعد يومين من اجتماع برميل الزبالة استوقفتني إحداهن على السدرج، وقالت بلهجة مُهدِّدة: هذا لا يجوز.. يجب أن تدفع.. نحن في إسبانيا وليس في بلدك.. هنا يوجد قانون.

ماذا أقول لهذه؟!.. وهل ستفهم إذا قلت لها إن أول قانون في الدنيا قد شرعه حمورابي العراقي في مسلته؟.. استفزتني نبراتها، كلماتها واختلاج حنكها وشعيرات الأنف، فقلت: حسناً.. إذا كان لديك حق علي في شيء فاشتكيني وخذي حقك مني وفق هذا القانون الذي تتحدثين عنه. سكتت قليلاً ثم انفجرت بالبكاء المتوسل: أنا أرملة وحيدة وراتب الإعانة قليل.. كلبي قد مات منذ شهرين ولا أحد يعزيني فيه.. أنا حزينة عليه وأبكيه أكثر مما بكيت على زوجي.. لقد كان سوني (الكلب) طيباً يستقبلني كلما دخلت بفرح هازاً ذنبه ويرافقني في جولتي اليومية إلى المتنزه.. لقد كان.. فقاطعتها حين أدركت بأنها على استعداد لقضاء اليوم بأكمله متحدثة عن خصال كلبها الميت: أوه.. أنا آسف يا سيدة.. أنا مستعجل وبانتظار مكالمة هاتفية. توقف جريان دمعها وقالت بلهجة أخرى تماماً: إذن هل ستشارك بالدفع؟. قلت: لا.. عن إذنك.. مع السلامة. ثم استدرت صاعداً دون أن ألتفت وأنا أسمعها تُدَمدِم خلفي بكلمات من المؤكد أنها شتائم لأنها أغلقت بابها بعد ذلك بقوة.. ماذا أقول لهذه العجوز التي تكبر أمي ربما بعشرين سنة ومع ذلك تبدو أكثر صحة منها، ولا تكف عن طلي وجهها بالمكياج؟.. كيف أُفهمها موت إخوتي وأبناء

عمومتي وجدي وحبيبتي عالية وإخصاء أبي والحروب وهي تحدثني باكية عن كلب!؟؟.

راحوا يتحاشونني بعد ذلك جميعاً باستثناء جارتي الصديقة الكوبية، لكنني لم أكف عن مبادرتهم بالتحية حين ألتقي بهم على السلّم أو عند باب المدخل أو عند بائعة الخبز والخضراوات في المحل المقابل. بعضهن لم يكن يرد التحية في البداية ولكن مع مرور الوقت تم الاكتفاء بالتحيات وتركوني وشأني دون أن يدعوني لأي اجتماع بعدها. كانت هذه العزلة تشعرني بالراحة أكثر لأنني أريدها. أدخل شقتي، عالمي، بين الكتب والطبخ والموسيقى وتحسين لغتي الإسبانية، وأقص أية صورة عن العراق أجدها في الصحف. أعلقها على الجدران، لذا ازدحمت بها، على مدى عشرة أعوام، جدران غرفة النوم والصالة والممر والمطبخ. المؤسف أن الصحف لا تنشر إلا صوراً مأساوية عن العراق، كالأبنية المتهدمة والدبابات المحترقة وذباب الأسواق الشعبية وصوراً لصور الدكتاتور في الشوارع والساحات وواجهات العمارات. لذا أحاول أن أنتقي منها الأقل قسوة.. أعلقها في كل مكان باستثناء البقعة التي أصلي فيها خلف باب الصالة. كُلها بالأسود والأبيض ما عدا بطاقتين ملونتين إحداهما بعثها لي صديق من إيران فيها منائر وقباب ذهبية كربلائية والأخرى من تونس فيها نخيل. وغلاف ملون لصحيفة إسبانية تم تصميمه بالكمبيوتر، خريطة العراق وطائرات حربية تشير مناقيرها إليه.

كنت مكتفياً بعالمي هذا، حيث أمارس هويّتي الأولى، حنيني، شوقي إلى احتضان أمي وإخوتي، إلى زيارة قبر عالية، إلى السباحة في نهر دجلة، إلى أصدقائي، إلى أبقارنا وحميرنا ودجاجاتنا والجبل. أتلهف إلى أخبار منهم، عنهم.. كيف هم الآن؟ ماذا حدث؟.. ماذا يحدث؟.. من مات منهم، من تزوج من؟.. وأنجبوا من؟.. ما هي الأسماء الجديدة

هناك؟.. هل مازال الله أو أصابعهم على القرآن هي التي تختار لكل اسمه وآيته الخاصة؟. أسمع الأغاني العربية فقط وأطبخ الوجبات العراقية.. لقد كابدتُ كثيراً كي أصل إلى هنا، وكابدت أكثر كي أجعل إقامتي قانونية وإيجاد مصدر معيشي. صار يعجبني العيش هنا وسط هذه الحرية وهذا السلام لذا فأنا منهم، من هنا، حين أكون خارج شقتي، أهتم بما يهتمون به: مباريات كرة القدم، مصارعات الثيران، أخبار الفنانين، سهرات نهايات الأسابيع.. لكنني من أهلي، من هناك، حين أعود إلى شقتي وحيداً.. وهكذا إلى أن ظهر أبي فجأة، مختلفاً عن الذي تركته هناك أو عن الذي عشت مع ذكرياتي عنه طوال هذه الأعوام. فأين أضعه وفق عالمي المنقسم إلى اثنين؟.. كانت صورته السابقة تندرج ضمن عالمي الداخلي.. الذاكرة والشقة وهذه الصور غير الملونة والدم. لكنني أراه الآن لا ينتمي إليه وفي الوقت نفسه لا أستطيع عده تماماً ضمن عالمي الخارجي.

أصدقاؤه هنا لا يشبهون أصدقائي، وعمله لا يشبه عملي، وسلوكه لا يشبه سلوكي.. بل إنه لا يشبه نفسه، ونساؤه لا تشبه نسائي.. أو على الأقل لا يشبهن اللواتي عرفتهن، فأنا بلا نساء تقريباً أو على الإطلاق، والمرأة الوحيدة التي صاحبتها منذ وجودي هنا هي بيلار التي تعرفت عليها قبل ست سنوات، حين ذهبت، ذات نهاية أسبوع، مع أصدقائي - الذين هم زملائي في العمل - إلى مرقص، قدمها لي أنطونيو المسؤول عن مراجعة عناوين الأكشاك والمكتبات وأسماء وكميات الصحف التي نوزعها. بيلار موظفة في البريد. ممتلئة وأقصر مني قليلاً، وجهها دائري يطفح بالحيوية والرغبة، مقصوصة الشعر كي تؤكد أن طول رقبتها لا بأس به. بعد تبادل كلمات التعارف عند دكة البار، قالت: هذه أغنية برازيلية جميلة.. أترقص

معـــي؟. قلت: لا أعرف الرقص.. هل تفهمين ما تقوله هذه الأغنية؟. قالت: هذا غير مهم، فلا تظن أن كل هؤلاء الراقصين يعرفون كلمات الأغاني أو أنهم يعرفون الرقص.. المهم الإيقاع ثم هز نفسك كما تشاء فليست هناك قواعد معينة.. تعال. وسحبتني من كفي إلى وسط حلبة الـــدخان، إلى دائـــرة الرقص، تحت كرة الأضواء الملونة الدائرة فوق رؤوس الدائـــرين على أنفسهم.. بالفعل شجعتني تلك المرة على عدم التـــردد في دخول حلبات الرقص، حيث أمضينا ساعات من الاهتزاز والتلامس والمرح والضحك واشتهاء الأجساد المتدفقة بانتفاضاتها حولنا ونسيان ما لا نراه.

تتعرق أجسادنا، نحتسي السوائل ونذهب إلى الحمامات كثيراً. لا ســاعة في الجـــدران طبعاً، لكننا حين شعرنا بالتعب قلنا: كم الساعة الآن؟. فأجـــاب أحـــدهم: الرابعة إلا ربع. قالوا: نذهب إذاً. وفي ممر الخروج همس لي أنطونيو: خذ بيلار معك. قلت: إلى أين، متى، كيف، لماذا؟. قال: اهدأ.. هكذا.. كما أقول لك. قلت: ولكن أنا.. فقاطعني: هـــي التي سألتني ذلك.. لحظة، سأجعلها تطلبه منك بنفسها. وتراجع مقترباً منها فيما خرجت أنا منتظراً أمام الباب، شعرت بعذوبة الهواء في الخـــارج، خلـــوه من الدخان والروائح، برودته وهو يلامس جسدي المتعرق.

كـــان ماريـــو بجواري منشغلاً بتقبيل كارمن، مسنداً إياها على عمـــود النور، وكفاه على مؤخرتها كعادته حتى لو كانت جالسة على كرســـيها كسكرتيرة في شركتنا. كلما قبلها مد كفيه إلى هناك. خرج الجميع، يمسحون عرق جباههم، يعدلون من ملابسهم، نافضين ياقات قمصانهم وأسفل آباطها بقصد التهوية. أنطونيو وإيبا وخسوس وإنريكه وماريـــا وبيلار التي اقتربت مني قائلة: كيف.. هل أعجبتك السهرة؟.

قلـــت: نعم. قالت: وأنا كذلك.. لم يبق مترو الآن، أنا أسكن خارج مدريـــد في موستوليس وأنت؟. قلت: أنا هنا قريب في شارع فومينتو، قرب ساحة إسبانيا. قالت: أوه.. أنت محظوظ.. تعيش وحدك؟. قلت: نعـــم. قالـــت: هل تسمح لي بقضاء الليلة عندك؟. قلت: نعم. ودعنا الباقين وقال أنطونيو: إلى اللقاء في الشركة بعد ساعتين. ثم أضاف مع ابتسامة مقصودة الدلالة: حاول أن تنام ولو ساعة واحدة.

مـــا إن انعطفـــنا في الشارع التالي حتى لفت بيلار ذراعها على ذراعي ملتصقة بـــي في مشيتها. كانت الشوارع خالية إلا من أشباهنا الخـــارجين مـــن المراقص أو سكارى ومتسكعين يشخرون في مداخل أبواب البنوك، وتمرق سيارة ما بين حين وآخر. قالت بيلار: من حسن الحـــظ أن عملـــي في المساء ولذا سأستطيع النوم.. وأنت؟. قلت: أنا عملـــي يبدأ في السادسة ولذا اعتدت أن أنام القيلولة عند عودتي، من الثانـــية عـــشرة حتى الثالثة وأحياناً حتى السادسة مساءً. كنت أشعر بثدييها على ذراعي، لدنين، وأنفاسها عند كتفي حين تتحدث. تقول: لدينا مراقص في منطقتي بالطبع، لكنني أحب مراقص المركز هنا منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري، تعرفت فيها على أصدقاء كثيرين.. كم عمرك؟. قلت: ثلاثون.. وأنت؟. قالت: ستة وعشرون.

وصـــلنا بـــاب العمارة التي أسكن فيها فوجدنا قطة نائمة عنده. نهـــضَت وابـــتعدت حين وقفتُ فارداً المفاتيح. قالت بيلار: أوه.. يا حلـــوة.. أنا لدي قطة أيضاً اسمها كلارا أهدتني إياها صديقتي لاورا في عيد ميلادي قبل سنتين. فتحت أنا الباب وأضأت مصابيح السلم، بينما تواصل هي حديثها عن القطة دون انتظار إجابة، ربما لتملأ الصمت أو لتقرب مسافات التعارف أكثر. أحبها جداً وهي تنام في حضني دائماً، هـــذا إذا لم يكن معي شخص آخر في السرير طبعاً.. وتضحك. تخيل

إنهــا تغــار أيضاً!. نصعد الدرجات بتعب لأن السلم قديم كالعمارة، مــصنوع من الخشب بدرجات عالية وغير مريحة بحكم ضيق المكان. صدقني إنها تغار علي من الآخرين أيضاً. للأسف أنا ولاورا قد تخاصمنا منذ تسعة أشهر، تغار على خطيبها مني.. كم بقي لنا؟. قلت: طابقان، أسكن في الطابق الرابع.. الأخير. واصلَت لاهثة: أوف.. لا بأس، نحن شباب، يقال إن صعود السلالم يقوي عضلة القلب. أمسكت بذراعي مــستعينة ثم انــتقلت قفزاً من السير خلفي إلى السير أمامي بدرجتين، حيث وازت مؤخرتها وجهي؛ كروية ممتلئة يُبرز تفاصيلها سروال أسود محكــم الضيق، يغور منتصفه داخلاً في العمق بين الردفين. وتُرى ناتئة بوضــوح حــواف لباســها الداخلي، إحدى الجهات داخلة أكثر من الأخرى. لون أبيض، فقد رأيت أعلاه خارجاً من أعلى البنطلون حين تنحني صاعدة ويرتفع قميصها قليلاً. تلهث لكنها لا تكف عن الكلام: أنا أسكن في الطابق الثاني ولدينا مصعد لأن العمارة جديدة، إن شقتي ملكــي فقــد اشتريتها بكفالة البنك استناداً إلى راتبــي، أنا أعمل في الــبريد مــنذ خمس سنوات. توقفَت في آخر السلم: آوف.. وصلنا.. أيهما؟. قلت: الباب الأيمن.

اتجهَــت نحوه ثم وقفت هناك منــزلة حقيبتها السوداء عن كتفها وتاركــة لي فسحة لأفتحه، فقلت وأنا أُدخل المفتاح: إنها شقة صغيرة متواضعة.. ولكنها تكفيني، أنا مرتاح فيها.. تفضلي. فاندفعت في الممر بعد أن أضأتُ لها النور متوجهة إلى الصالة، تطلعت إلى الجدران المغطاة بمئات الصور التي اقتطعتها من الصحف وقالت: أوه.. إنها مَتحف.. إنها حميمّة.. هذه الصور من بلدك؟.. هل قلت لي أنك من إيران!. قلت: لا، أنــا مــن العــراق. قالت: زوج خالتي مصري، اسمه منصور، إنه شــخص لطيف. ألقت بحقيبتها على الكنبة، خلعت قميصها الخارجي

ذي اللون البنفسجي كاشفة عن لحمها العلوي أبيض حد تشاهه بخيطي قميـــصها الداخلـــي المعلقان على كتفيها وبان صدرها عامراً، يفوق بحجمـــه صدر عالية بالضعف. أعلى النهدين عارٍ وهما يرفعان القماش الحريـــري الخفـــيف بلا مشد للأثداء لأن الحلمتين بارزتان بجلاء على طـــرفي المـــنخفض الوسطي بين الكرتين حيث يتدلى صليب صغير من الـــذهب. وراحت تستكشف البيت مطلة برأسها من الأبواب: غرفة واحـــدة!.. إنها مليئة بالصور أيضاً!.. وهذا هو الحمّام، فأين المطبخ؟.. آه.. إنه هناك في المَمر.. وتوجهَت إليه، فيما جلستُ أنا على الكرسي أخلـــع حذائي بعد أن شغّلتُ التلفزيون خافضاً صوته، وسمعت صوتها من الطبخ يقول: أشعر ببعض الجوع قليلاً.. وأنت؟.. هل تريد أن أعد قليلاً من السباغتي بالجبن والحليب، لقد علمني ذلك صديق إيطالي، إنها أكلة لذيذة. قلت: لا.. بالنسبة لي سأكتفي بتَمرَتين وعلبة لبن صغيرة. وتـــوجهتُ إليها في المطبخ، أنـــزلتُ لها كيس السباغتي، سحبتُ قدراً صغيراً للطبخ وأوقدت لها الطباخ. وأخذَت هي كأساً تنقل به الماء من الحنفية إلى القِدر، ثم تعود مكانها لتكسر أعواد السباغتي.

لا تتوقف عن الحديث وتكرار المرور من خلفي حاكة ثدييها على ظهري بحجة ضيق المكان أو واضعة كفها على ظهري برفق. ثم فتحَت بـــاب الثلاجة وانحنَت مطلة إلى داخلها فبان نصف ظهرها أبيض تحت القميص الخفيف الأبيض، وبنطلونها الأسود انسحَب إلى الأسفل أكثر مجروراً بفعل إليَتيها فبانت أكثر شبكة الدانتيلا الشفافة للباسها الداخلي وزَغب أول خط مفترق الردفين البائن أعلاهما. تكويرتان على الخلف ممتدتان حتى أسفل الخصرين على الجانبين. قالت: هذا الجبن ينفع نعم.. وهذه علبة الحليب. مدت ذراعها بهما واضعة إياهما على حافة الطباخ دون أن تُخـــرج رأسها من الثلاجة وهي تقول: لا أرى لديك نبيذاً..

شـــربنا كثيراً نعم، ولكنني أشتهي كأساً أخيراً. قلت لها: أنا لا أشرب الكحول، ولكن توجد بيرة بلا كحول إذا شئتِ. قالت: أين؟ دون أن تغير وقفتها فانحنيت خلفها، مسنداً كفي على البقعة العارية من ظهرها ووجهـــي قـــرب وجههـــا. ســـحبتُ لها علبة من خلف كيس الخبز العربـــي، فأدارت وجهها وقبلتني على خدي: شكراً.. لماذا لا تشرب الكحول.. منصور يشربه.. أأنت متديّن؟. قلت: لا.. نعم.. إلى حد ما ولكنني غير متشدد. قالت: أنا لا أؤمن بوجود الله.. ولكن أحترم آراء الآخرين.

لم تكن لي رغبة بمواصلة الحديث عن هذا الموضوع الذي أعرف بدايته ونهايته وإلا لسألتها عن الصليب الذي تحمله. فأنا أتوقع الإجابة ســـلفاً كالقول: إنه لا يعني شيئاً، إنه رمز تقليدي عام، أو إنه هدية من أمي أو صديقتي أو لأنه جميل وبسيط وما إلى ذلك من تبريرات لا تشير إلى حقـــيقة المخفي من طبيعة تدينهم. لا رغبة لي بذلك ستسألني مثل الجميع عن السطحيات التي يعرفونها عن الإسلام فقط، الزواج من أربع نـــساء، والحجـــاب، واللحى.. وما إلى ذلك من هذه الموضوعات التي تعـــبتُ مـــن النقاش فيها وتوضيحها، وخاصة عندما يعود الذي أقنعته ليسألك الأسئلة ذاتها بعد يومين. قلت: أنا أؤمن بوجود الله.. وأحترم آراء الآخـــرين. ربما أدركَت عدم رغبتي بالحديث عن ذلك لذا غيرت الموضوع: إنك تتحدث الإسبانية جيداً.. كم سنة لك هنا في إسبانيا؟. قلـــت: خمس سنوات تقريباً. وهي مازالت تتحرك محتكة بـــي: وليس لك خطيبة أو صديقة؟. قلت: صديقات نعم، زميلاتي في العمل اللاتي رأيتِهن معنا في المرقص، أما خطيبة فلا. سألت بجد مطلي بالمزاح: لابد أنـــك متـــزوج في بلدك. فأجبتها بنبرة شبيهة وتهكمية: نعم لدي أربع زوجات وأربعون ولداً.. فضحكت. أغلقَت القدِر وقالت: تعال نجلس

في الصالة قليلاً حتى ينشف الماء ثم نضيف مثلثات الجبن وبعض الحليب.. سيكون الطعم لذيذاً.

جلست أنا على الكنبة فجاءت وجلست ملتصقة بي واضعة علبة بيرتها على الطاولة أمامنا بعد أن ارتشفت منها مرتين وقالت حين رأتني أحدق بشاشة التلفاز: لا شيء مهم الآن في التلفاز. وبالفعل كانت مجرد برامج آخر الليل الدعائية عن أنواع السيارات وأجهزة الرياضة الحديثة. فأطفأته ولفّت ذراعها اليسرى على رقبتي ومدت اليمنى إلى قميصي تفتح أزراره قائلة: لماذا لا تغير ملابسك، أنت في بيتك. وضحكت وهي تشدني نحوها، نحو شفتيها، فرُحنا في قبلة طويلة تبادلنا فيها الألسن والشفاه وهواء التنفس المتسارع. وخلال ذلك كانت كفها تعبث بشعر صدري وتنزل، بينما كنت أفكر بصدرها الممتلئ منذ رأيته يهتز بالمرقص. أشتهي تجربة ملامسة صدر كبير كهذا، فبادرت دون أن أتوقف عن مص شفتيها بمد كفي من تحت قميصها الداخلي الخفيف.. أوه.. ما أعذب ذلك.. لدنان تغوص فيهما أصابعي وتدور حولهما كفي باتساع. حلمتان شعرتُ بهما ينتصبان. رأس إصبعي يمس رأسيهما، ثم أصابعي تدور على كل الجهات ويُرعشني الدفء بين انطباقة النهدين عليهما.

سَرَت الرعشة في بدني، توتَّرَ وسطي.. أصابعها تنزل باتجاهه وهي تزداد طراوة والتصاقاً بي، تذوب مغمضة عينيها.. ولا أدري كم بقينها هكذا لكننا حين توقفنا ونظرت إلى وجهها وجدتها مبتسمة متوردة وأكثر جمالاً بعينين لامعتين واشتهاء ثري. قلت: وأنتِ في بيتك أيضاً، غيّري ملابسك إذا شئت. توجهنا إلى غرفة النوم. فتحتُ خزان الملابس وأخرجتُ لها إحدى بجامتاي، فوجدتها، حين التفتُّ، قد خلعت بنطلونها ورأيت لباسها الداخلي الأبيض غائصاً في امتلاء

مؤخـــرتها والفخذين. بيضاء، قالت: البجامة فقط، وسأبقى بقميصي هذا. واستبدلتُ أنا أيضاً ملابسي وظهري إليها كي لا ترى الانتصاب المتوتر أمامي.

شعَرنا بالراحة والتحرر حيث راحت هي تتحرك بشكل أكثر ثقة وعفوية بين الصالة والحمّام والمطبخ حيث عادت إلي بعلبة لبن مفتوحة وفيها ملعقة صغيرة. أعطتني إياها وجلست في حُجري، ملأته بمؤخرتها الـــتي احتـــضنتها كفي ودارت حولها من كل الجهات. استندَت على صـــدري تقبلني بين لحظة وأخرى. وأنا أعاود ملامسة ثدييها من فوق القميص.. ومن تحته.

## - 5 -

بعـد تفكير متقطع، متناقض، متقلب.. حسمتُ الأمر في نفسي على عدم مضاجعة بيلار، سأتحاشى الوقوع في الخطيئة هذه الليلة قدر المُستطاع. لم أضاجع أحداً من قبلها، ولن أخبرها بعذريتي حتى الآن لأنها لن تصدق أو تضحك أو تخاف.. أو لا أدري، فأنا الخائف أيضاً من الله وجدي وعالية ومن احتمال فشلي وارتباكي وافتقاري إلى التجربة. سأكتفي بما قطفته منها من قُبلات وملامستي لنهدين كبيرين كنت أشتهيهما كلما مرت امرأة بهما أمامي في شوارع الحياة أو كشفت عنهما على شاشات السينما وسواحل البحار الصيفية. فلم أعرف في حياتي مثل نهدي عالية الرائعين، لا كبيران ولا صغيران، طريان متينان ومنتصبان أبداً حتى وهي ميتة.. كأنهما خُلقا استجابة لأمنية: هكذا أريدهما. كانت تطليهما لي بالتَمر وأمصهما تحت شجيرات الغرَب والصفصاف، على الرمل، وسط دغل شاطئ قريتنا القشامر.

انتهت بيلار من تناول طعامها بعد أن ألقمَتني منه مرتين لتجريبه. كان لذيذاً بالفعل. وقلت في نفسي سأجرب إعداده لاحقاً. وهذا ما فعلته حقاً بل وتفننت فيه مغيّراً من أنواع الجبن والحليب. غسلَت الأواني في المطبخ، ثم عادت ودخلت الحمام دافعة بابه دون أن تغلقه. سمعت خرير بولها، تمضمضها، تمخطها واغتسالها ثم خرجَت وأشارت برأسها إلى غرفة النوم: هيا. قلت: لا.. سأحاول النوم قليلاً هنا على الكنبة ولو نصف ساعة فأنا متعَب ولدينا عمل كثير، عادة، في أيام

الاثـــنين. قالت وقد تبدلت ملامحها قليلاً: ولماذا على الكنبة؟.. السرير يتـــسع لكلينا. قلت: لا.. فأنا أشخر بقوة كلما كنت مُتعَباً، كما أنـــني لا أريـــد إزعاجك بمنبه الساعة. قالت: حسناً.. كما تريد. اقتـــربت مني وقبلتني من فمي قائلة؛ تصبح على خير، ثم غابت في غـــرفة النوم. رددتُ أنا عليها الباب، أطفأت نور الصالة واستلقيت على الكنبة.

في الحقـــيقة لم أكن شديد التعب لأنني اعتدت على النوم نهاراً، ولـــيس لدي نعاس حيث قلبـــي يزداد خفقاناً لوجود امرأة في بيتي.. وخاصة بعد كل هذه القُبل والملامسات. كنت أرغب بالانفراد بنفسي قلـــيلاً وإعادة تأمل كل ذلك.. يحدث معي هذا الأمر دائماً؛ بعد أي حـــادث أو حـــديث مؤثـــر أختلي بنفسي لبعض الوقت مستعيداً له، مـــتأملاً، مستمتعاً ومستشرفاً آفاقه. قبضتي تعتصر المتوتر تحت بجامتي ورائحـــة بيلار تملأ المكان. لكن ما حدث أعادني إلى عالية، أنا العائد إلـــيها دائمـــاً، قـــصة حبـــي الوحيدة، الأولى منذ كنا صِبية في قرية الصُبح. وذكرياتها غذاء رغباتي الأشهى. هي ابنة عمي وبيتهم جارنا لا يفـــصلنا عنهم سوى حائط واطئ من الطين كنا نعبُره بالجلوس عليه. تنور خبزهم جار تنور خبزنا لذا كنا نجتمع حول أمهاتنا وهن يخبزن في الفجـــر أو عند الغروب. هن يتحدثن عن الجارات والأبقار والدجاج والمزارع والأطفال ونحن نلعب حولهن ونختار كِسر الخبز المحمصة هناك. كانـــت عالـــية أحب اللاعبين إلي فأنحاز لها دائماً في كل النـــزاعات وأهـــدي إليها أفضل كائناتي التي أصنعها من الطين ومنها حصان لونته بالأبيض، باستثناء الذيل أسود مثل حصانهم، لأنها تحب الخَيل. ووالدها هـــو الوحـــيد الذي يملك حصاناً في القرية، أما نحن البقية فليس لدينا سوى الحمير. يسميه (الأسد) على الرغم من أنه حصان.

حين كبرت عالية صارت تركب (أسد) أبيها وتنطلق به إلى شاطئ النهر لتسقيه أو تأخذه إلى الحقل لجلب الخُرج المليء بالبطيخ والباذنجان من أمها.. وكلما رأيتها تمر قربي ثم تبتعد أبقى في مكاني مستعيداً مشهدها على الحصان الأبيض وشعرها الأسود الطويل الشبيه بذيله يراقص الهواء خلف رأسها مثل جناح طائر سعيد. كانت أختي إستبرق هي مرسال الحب بيننا، لأننا حين كبرنا صار من الصعوبة اللعب مع بعضنا أو الانفراد في اللقاء، وقرية (الصبح) مكشوفة محتشدة بالعيون، الكل يعرف الكل ولا يُخفى شيء على أحد.

حين قلت لإستبرق أول مرة بأني أحب عالية، فرحت كثيراً وانطلقت راكضة صوب بيت عمي. هي النحيلة المريضة دائماً، رأيتها، من النافذة، تعبر الجدار الطيني بقفزة واحدة ثم تغيب. أما أنا فبقيت في حجرتي مرتجفاً، أغطي وجهي بالمخدة وأعصره.. لا أدري ماذا أفعل، وقلبي يدق بشكل لم أعهده من قبل إلا في حالات الخوف من جدي. وعلى الرغم من أن إستبرق قد عادت بعد نصف ساعة لاهثة وأغلقت الباب خلفها، إلا أنني كنت أشعر بأنها قد تأخرت دهراً. لم أستطع قراءة شيء على وجهها ولكنني كنت أشعر بأنها تحمل الإجابة التي ستجعلني سعيداً أو حزيناً في لاحق أيامي.

دارت في الغرفة متخابثة عامدة وهي تشبك أصابعها وتطقطقها تباعاً. رأسي يتابع رواحها ومجيئها مثل بندول ساعة جدارية. أمسكتها من ذراعها حين مرت جواري وأنا مازلت أجلس على حافة السرير لا أقوى على الوقوف.. لأنني أرتجف، ولم أستطع الكلام فزفرتُ سائلاً: هاه؟؟.. نظرَت إلي بمعانٍ كنت أراها كثيرة، ثم أدارت وجهها صوب الجَرّة الصغيرة التي صنعتها بنفسي من الطين ولونتها بزخارف من أزهار وفراشات ودوائر في دوائر كالعيون، وكنت أعتبرها أفضل أعمالي

الفنية وأحبها إلي، لذا وضعتها قرب رأس سريري فوق صندوق الكتب وفيها أقلامي. قلتُ: ماذا؟.

ابتسمت إستبرق وأشارت بسبابتها إلى الجَرّة دون أن تنطق، وفهمت أنها تريد هذه الجرة مقابل كلامها. حاولتُ التغابي أو تحييدها عن ذلك فسألتُ: ماذا.. هل وجدتيها؟. ظل إصبعها يشير إلى الجرة بإصرار. فمددت ذراعي دون أن أنهض، قلبتُها وأخرجت أقلامي منها، وضعتها على سطح صندوقي ودفعت بالجرة إلى إستبرق، فابتهجَت محتضنة لها، وقلت: هاه.. ماذا؟.. تكلمي؟ يا إستبرق يا عيني.. الله يحفظك.. إنك تذبحيني. لكنها واصلت صمتها المتخابث وابتساماتها الدالة، ثم مدت كفها لي و لم أفهم. دفعَتها أكثر إلى فمي، فعرفت أنها تريد مني تقبيلها، فقبلتها، لكنها هزت رأسها بالنفي وأشارت إلى الأرض. فتذكرت أنها تحضر معنا حكايات جدي الليلية عن الفرسان القدامى العائدين من المعارك بالانتصار وهم يقعون بركبهم على الأرض ويقبلون أصابع حبيباتهم. ففعلت، ثم تطلعتُ إلى وجهها من الأسفل فكانت مرتفعة فعلاً. وهطلَت على وجهي محتضنة رأسي دون أن تترك الجرة من يدها. أمطرتني بالتقبيل والفرح قائلة: إنها تحبك أيضاً يا سليم.. إنها تحبك.

وهكذا كانت أولى بداياتي مع كتابة الرسائل والشعر. أُطرز حافات الرسائل برسوم الفراشات والقلوب المخترقَة بالسهام وعليها الحرفان الأولان من اسمينا. وكنت أتسلل إلى غرفة أمي، في غيابها، لأرش على رسائلي من زجاجات عطرها التي يجلبها لها أبي هدايا من أصدقائه الألمان. يقول جدي في قصصه عن الفرسان أنهم كانوا جميعاً عشاق وشعراء وأكثر من يعجبه منهم عنترة ابن شداد ويتمنى رؤيته لأن النبي قد تمنى ذلك أيضاً. عنترة كان مثلي يحب ابنة عمه أيضاً،

وهو يكتب لها الشعر، لذا كتبت قصائدي الأولى لعالية. أصف نفسي فيها فارساً شجاعاً لا يهاب الموت، أقطع من رؤوس فرسان العدو ألفاً بضربة واحدة من سيفي، وأصارع الأسود المتوحشة فأهرس رؤوسها بقبضتيّ كمن يهرس بيضاً. أقطف لها نجوم السماء وأصنع منها قلادة يتوسطها القمر، أعلقها في رقبتها، وأجبر الناس على الاعتراف بأنها أجمل نساء الكون. فيما أصف عينيها، على الرغم من أنهما صغيرتين مثل فتحات إدخال الأزرار في القمصان، لذا كانت أمها تناديها مدلّلة أو غاضبة: يا صينية. لكنني شبهتهما ببحيرتين واسعتين من المرجان، عينان فيهما كبرياء أسد ورِقة غزالة، وشَعرها حرير يغار منه الحرير، وبأنها هي التي علمت أغصان الأشجار كيف تتمايل عند هبوب الريح بدلال مثل مشيتها، وبأن عالية هي ملكة الدنيا لا يرى تاجها غيري وسأجعلهم يرونه بقوة سيفي..

كانت إستبرق تقرأ رسائلنا عند نقلها وتقرأ قصائدي بدهشة متمنية لو أن صراط يستطيع كتابة الشعر مثلي. أما عالية فلم تشر إلى قصائدي في رسائلها أبداً.. لم أستطع الانفراد بها طوال أعوامنا في قرية الصُبح على الرغم من أنني كنت أترصدها ليل نهار من نافذتي وأتعمد خلق المصادفات لأحييها أو أختبئ فوق الجرف لأراها حين تأتي إلى شاطئ النهر على حصانهم لترويه وشَعرها طائر خلفها مثل جناح طائر سعيد. وأرى التماع ساقيها حين تخوض في الماء، تكويرة ردفيها وهي تنحني لتغرف وتَشرب أو تغسل شعرها. وكنت أكثر من يحزن حين يشتد المرض على إستبرق ويطرحها في الفراش، حيث تنقطع الرسائل من عالية وإليها، فأجلس قرب رأس إستبرق آخذاً كفها النحيفة الساخنة بين كفي، أقبل أصابعها وأبكي.. عادة تعلمتها من جدي الذي ينكسر قلبه وظَهره كلما رأى أحدنا طريح الفراش، يجلس قرب

رأسه، يتلمس كفيه وجبهته بحنان فائض ويتلو آيات من القرآن وأدعية الشفاء متوسلاً إلى الله كأنه يراه. لذا كانت أيام مرضنا هي أكثر أيامنا قرباً إلى جدنا الذي نراه في أثناء صحتنا شديد المَهابَة والقسوة على الرغم من أننا لم نره يضرب أحداً.. لكنه أشد علينا حناناً من أمهاتنا عندما نمرض.. إلى الحد الذي كان يُشعرني أحياناً بتمني المرض كي أحظى بلمسات أصابعه الحنونة.

إستبرق أحب أخوتي إلي وأقربهم إلى روحي، وهي تشاركني لعبي، ترتب لي غرفتي، تقلم لي أظافري وأقلم لها أظافرها وعند انشغال أمي عنها أساعدها بتمشيط شعرها. تحفظ لي قطع الحلوى في غيابي وأحفظ لها قطع الحلوى في غيابها، نتشارك في أسرارنا دون بقية إخوتنا. أنقل لها رسائل حبها إلى صراط وتنقل رسائل حبي إلى عالية. الكل في عائلتنا يعرف انحيازنا لبعضنا وحميميّة محبتنا، لذا اختارني جدي وأبي لأكون معهما، دون سواي، حين قررا أخذ إستبرق إلى الشيخ الكردي لمعالجتها. ولذا سقط قلبي معها حين سقطت مني بعد سماعنا لصوت طَلقة، أول ترجلنا في باحة ذلك الشيخ، وصيحة جدي: الله أكبر.

جثوتُ قرب رأسها على ركبتي فزعاً، أتفحصها ولا أرى دماً، فأهز كتفيها وأناديها علها تفتح عينيها: إستبرق.. إستبرق. حبيبتي. فجاء الشيخ الكردي صوبنا راكضاً من جهة الطلقة، من جهة البيت، حاملاً بندقية صيد قديمة مازالت فوهتها تدخن وهو يصيح بي: اتركها.. اتركها يا ولَد. وردد جدي بالصيحة ذاتها: اتركها يا سليم. فرفعتُ كفي عنها دون أن أنهض أو أبتعد، ناظراً إليهما وهما يتعانقان مثل صبيّان فاز فريقهما بالمباريات. كانا بالسن نفسها، نحيفين، متساويين في القامة، لحيتان بيضاوان، جدي يرتدي بدلته المفضلة

للمناسبات نسميها (زبون) وعِقال، والكردي ببدلته عريضة السروال وعلى وسطه لف حزام من القماش شبيه بقماش عمامته، كانا في أوج أناقتهما وعناقهما. يربتان على أكتاف بعضهما ويرددان العبارة ذاتها: أوه.. أخي وحبيبي في الله الملا مطلق. أوه.. أخي وحبيبي في الله كاكه حمه. فيصحح الكردي لجدي: لم أعد حمه فقد غيرت اسمي إلى عبد الشافي منذ أن منَّ الله علي بكراماته. صافحه أبي وقال جدي: هذا ابني الكبير نوح. ومسح على رأسي فقال جدي: هذا حفيدي سليم وهذه أخته إستبرق.

تمتم الشيخ: ما شاءالله.. ما شاء الله. ثم التفَت إلى الخلف ونادى على فتاة تقف في الباب: هاتي الماء. فجاءت راكضة بثياب ذات ألوان كثيرة كالفراشات. وعلى آخر رأسها شال لامع. أخذ منها طاسة الماء وسألها: الملح. فمدت قبضتها الأخرى إلى كفه المفتوحة وأرختها ليتسرب منها الملح. راح الشيخ يذروه على الماء في الطاسة وهو يتمتم بكلمات لم نفهمها، يغمض عينيه ويقرأ من قلبه، ثم بصق في الماء وواصل قراءته الغامضة. غرس إصبعه السبابة في الماء، بمثابة ملعقة، يحركه كمن يحرك السُكّر في قدح شايه. غطّس كفه كاملة في الماء ثم راح يدور حول جسد إستبرق المسجى نافضاً فوقه بلل أصابعه ويقرأ، يدور، يرشها بالرذاذ ويقرأ، حتى لم يبق في قعر الطاسة إلا القليل فوقف عند رأسها قبالتي وانحنى.. سكبه كله على وجهها وصاح بصوت أجفَلني: الله حيّ.

رأيت إستبرق تفتح عينيها وتنظر إليه. فابتسم لها قائلاً: أهلاً يا حلوة. ثم نهض قائلاً: هاتوها إلى الداخل. وسار نحو جدي، ذراعه على كتفيه قائداً إياه صوب مدخل البيت. وتعاونا أنا وأبي والفتاة الفراشة على إنهاض إستبرق. سارت خطواتها الأولى متكئة علي ثم

شـــعرتُ بأنهـــا تـــسير بمفردها حتى دخلنا من بوابة جميلة امتزج فيها الخشب والنحاس المعقوف والزجاج الملون.

الـــصالة واسعة تشبه مسجد، البسط والسجادات الوثيرة تغطي أرضـــيته، ووزعت عليها الوسائد في كل الاتجاهات. ثمة عمودان بلون جـــذوع الأشـــجار في الوسط، موقد فحم غائر في الجدار تحت مربع مدخنة يأتي من خلالها صوت هديل الحَمام الحاط على أعلاها في عش اللقالـــق المُهاجـــرة. أبـــواب كثيرة في الجدران المتباعدة. جلس جدي والـــشيخ مـــتجاورين دون أن يفكا اشتباك كفيهما. وفي صدر المجلس فِراش مُعَد بوسائد عالية وشرشف أبيض مطرَّز الحواف بأزهار النوار. مدَّدنا عليه إستبرق، غطتها الفتاة وجلست أنا عند أقدامها، فيما جلس والـــدي على بعد متر مني. قال الشيخ للفتاة شيئاً بالكردية لم نفهمه. لكـــن جدي، الذي فاجأني بأنه يعرف اللغة الكردية، اعترض: لا.. لا داعـــي لإعـــداد الطعام يا شيخ، طريقنا بعيد ونريد العودة قبل غروب الـــشمس. تـــوقفت الفـــتاة مستفهمة. فكرر عليها الشيخ بالكردية وانصرفت، فيما قال جدي: حسناً كما تشاء. وعلق الشيخ: لدينا ديك رومي ممتاز يليق لحمه بالأعزاء.

فكّـــا اشتباك كفيهما وربت الشيخ على فخذ جدي مغيّراً وجهة الكلام: لقد نحفتَ كثيراً، ولولا تذكري الدائم لك وأيامنا في القتال مع ابـــن عمـــنا رشيد عالي لما عرفتك. قال جدي: إنه تقدم السن ومرض الـــسُكّر. علـــق الشيخ مرحاً: لا بأس، هذا حق.. كنت تمص السُكّر طـــوال حياتك وآن له أن يمصَّك. فضحكنا جميعاً فيما مد الشيخ كفه إلى جـــبهة إســـتبرق الـــتي كانت تنظر إلينا بصمت. عيناها جميلتان صـــافيتان، علـــى الـــرغم من صُفرة خفيفة تشوب بياضهما، لامعتان أدهشني سحرهما كأني لم أرهما من قبل. وقال الشيخ: كانت مسكونة

عفريت، لعنه الله، يتغذى على دمها فقتلته. فاجأني وأبـــي قوله بينما قال جدي ببرود العارف: ألا لعنة الله على إبليس وأتباعه.

فـتحَت الفـــتاة الفراشة باباً، كانت تصطخب خلفه الأصوات، داخلـــة بـــصينية مليئة بأقداح الشاي التي يتعالى بخارها، وفر معها من فـــتحة الـــباب جمع أطفال يتراكضون بضجيجهم منطلقين صوب فناء الدار لاعبين. دارت علينا بالصينية فتناولنا منها أقداحنا، وابتسمَت لي حين انحنت أمامي فشممت عطرها المصنوع من عروق النباتات. حين انـــسحبت أكمامها كشفتا عن ذراعين بيضاوين كشرائح الجبن فيهما أســـاور رفيعة من الذهب وساعة إلكترونية رخيصة. وحين انحنت أمام الشيخين قال الآخر لجدي: هذه كولاله ابنتي الصغرى.. آخر العنقود. وضـــحك فـــيما علق جدي: الله يحفظها. وسألها والدها: أين وضعتِ القلـــم والدفتر يا حلوة؟. فأشارت برأسها إلى الرف خلفه ناطقة كلمة بالكـــردية. فالتفتَ وتناول دفتراً قديماً ورقه أصفر شبيه بأوراق بضعة كـــتب كانـــت هناك عرفت منها القرآن فقط. اقتلَع ورقة من الدفتر، أسندها عليه، على فخذه وهمَّ بالكتابة ثم سأل: قلت ما اسم ابنتك؟. فأجبت أنا أسرع من جدي: إستبرق. كتب وسأل ثانية: وما اسم أمها؟. تـــرددت لأننا لم نعتد نطق أسماء أمهاتنا، وبما أنني أناديها أمي دائماً لذا لا يحضرني اسمها بسرعة حضور اسمي مثلاً أو حضور أسماء إخوتي. كذا بالنـــسبة لـــنا اســـم جدي لأننا نناديه "أبـــي" صغاراً وجدي كباراً، والآخرون ينادونه: يا ملا. أجابه أبـــي: مريم. فسألتُ أبـــي هامساً: لماذا اسم أمها وليس اسم أبيها أنت؟. سمعني الشيخ عبدالشافي فأجابني مـــن هـــناك: كلـــنا يوم الحشر ننادى بأسماء أمهاتنا، لأن الأم واحدة وأكـــيدة، أما الأب فقد يتعدد وغير أكيد. ثم استغرق الشيخ بالكتابة، مستعيناً بين الحين والآخر بكتب قديمة يسحبها من الرف الصغير خلفه.

نظــرتُ إلى إستبرق فوجدتها تنظر إلي وإلى أبــي، فابتسمتُ لها ثم مــددت لهــا كفي حين رأيت أصابع كفها في آخر ذراعها الممدة خارج الشرشف تومئ لي. كانت كفها دافئة تُسرِّب الحنان وهي تشبك أصابعها بــين أصابعي. أغمضَت عينيها قليلاً ثم فتحتهما على أبــي الذي اقترب مــن وجهها قائلاً بصوت خفيض: كيف حالك حبيبـــي؟. فهزت رأسها بإيجاب. انحنى على جبهتها طابعاً قبلة خفيفة ثم ابتعد بعينين دامعتين. كان جدي ينظر إلى ما يكتبه صاحبه بفضول وشفاهه تتحرك قارئة.

حــين انتهى الشيخ من الكتابة راح يطوي الورقة بشكل خاص، يثنــيها ويثنــيها على ثنياتها، حتى جمعها كلها على شكل مثلث صغير أغلقها بدس زاويتها بين فتحات الثنايا. أعاد الدفتر إلى الرف وسحب من هناك بَكَرَة خيط سحب منها نصف متر تقريباً. أدخل طرف الخيط في أحــد رؤوس المثلث ثم ربط الطرفين فصار قلادة، مدها إلى إستبرق قــائلاً: تعلقيــنها دائمــاً في رقبــتك لــيلاً نهاراً ولا تخلعيها إلا عند الاســتحمام. وبيــنما كنت أعين إستبرق على تعليق قلادتها الورقية، سمعــت جدي يقول: لدينا بقرة مريضة، فاكتب لها رقيّة أيضاً يا شيخ. قــال الــشيخ وهــو يعاود التفاته لأخذ الدفتر من ورائه: على عيني ورأسي.. تكرم.. ماذا بها؟. وراح جدي يفصل له أعراض مرض بقرتنا الحمــراء. وبعد انتهائه من قلادة البقرة - التي سلمها لجدي قائلاً: ربنا يجعــل فيها الشفاء - وانتهائنا من احتساء أقداح شاينا، دنا الشيخ من إســتبرق، فتح جفنيها بأصابعه محدقاً في عينيها وقال: بقيت خطوتان بــسيطتان وينتهــي كل شيء.. ستصبحين بعدها عروساً تمام التمام. وصاح باتجاه الباب البعيد: كولاله.

فأقبلَت الفتاة الفرَاشة. حدثَها بالكردية فانحنت على أختي وعرفنا أنــه يريد نقلها إلى منتصف مربع الجلسة، فنهضنا أنا وأبــي لنمددها

علـــى الـــسجادة في المنتصف. دار الشيخ حولها، وكولاله تسوي من فستان إستبرق مُحسنة تغطيتها، ثم أمسكت بأقدامها حين راح الشيخ يمد ذراعيها على الأرض بموازاة رأسها، ثم أفرد أصابع يديها السبابتين وألـــصقهما ببعضهما ونادانا: تعالوا انظروا إنهما غير متساويين.. هذا طبيعي فالإنسان مثل السيارة يحتاج إلى إعادة موازنته بين الحين والآخر.

كـــان الـــشيخ بالـــغ الحيوية، يتحرك برشاقة وخفة. جلس عند رأســـها، مد ساقيه وأسند قدميه على كتفها، ثم راح يسحب ذراعي إســـتبرق بقـــوة ويقارن بين سبابتيها، في حين استمرت فتاته الفراشة بالقـــبض على قدميها بإحكام. سحَبها لأكثر من مرة وإستبرق تغمض عينيها مع كل سحبة دون أن تتأوه. ثم هتف الشيخ: تعالوا.. انظروا.. ها هما الآن متساويان.. سأوازنكم جميعاً، فكلنا نحمل أمراض خفية لا تؤلمـــنا لكـــنها تتراكم.. تعال يا ولَد. ناداني بعد أن أعِدنا إستبرق إلى الفـــراش وتمـــددتُ مكانها على السجادة في المنتصف، مددتُ ذراعي، فناداهم: انظروا. فيما كنت أنا أستشعر ملمس الفتاة الفراشة لقدمي.. مـــا طعم ملمس كفيها البيضاوين!؟.. كان شايها لذيذاً. كان الشيخ يعـــت ذراعـــي اليسرى بقوة، كرر الأمر ثلاث مرات وقال: خلاص. فأقمـــت ظهري لأجد وجه الفتاة قرب وجهي دون أن تسحب كفيها عن قدمي وهمست لها: شكراً، فابتسمَت.

نهـــضتُ واســـتلقى جدي مكاني على الفور. كنا جميعاً كصبية يلعبون بمرح، وروحية الشيخ تبعث على ذلك. وحين جاء الدور على أبـــي ضـــحكنا جميعاً بما فينا إستبرق حين نظرنا إلى جثته الضخمة وكرشه الذي يرفع دشداشته كخيمة. جلست أنا ملتصقاً بالفتاة قابضاً على قدم وهي على أخرى فشممت عطر النباتات الفائح منها بوضوح أكبر. وعلق جدي قائلاً لصاحبه: وهذا كيف ستسحبه؟. أجاب الشيخ

باعتداد: سحبت من هو أسمَن منه. وحين قارن سبابتيه قال: انظروا إن جسده أكثر أجسامكم توازناً، أصابعه تكاد تكون متساوية، لابد أنه يعمل كثيراً. العمل صحة.

حين عُدنا إلى أماكن جلوسنا، توجه الشيخ بالحديث إلى ابنته، فأتته بصرة صغيرة وتوجهت إلى الباب الخارجي، نادت.. فجاء الأطفال راكضون، فيما حملت هي أقداح الشاي الفارغة وانصرفَت. وقف الصغار أمام الشيخ طابوراً، كلما وصل أحدهم أدار له ظهره ونظر الشيخ خلف أذنيه، ثم يقرب قفاه من عيني إستبرق قائلاً: انظري. كلهم قد شرَّحتُ آذاهم.. إنه شيء بسيط، لا يوجع.. إلا وخزة بلكاد ستشعرين بها، ولو كان جرح أَحدهم ملتئماً لشرحتُ أذنيه أمامك. ينطلق كل طفل راكضاً بعد الكشف إلى الخارج، بدا أنهم معتادون على ذلك. عادت كولاله تحمل في يديها مغسلة نحاسية وإبريق ماء. وضعتهما في المنتصف، ثم توجهت إلى إستبرق، أجلستها، أزاحت شالها، ورفعت شعرها إلى الأعلى، وقطفت قرطيها الفضيين، هلال وسطه نجمة تتدلى منه أقمار صغيرة يتوسط كل منها خرزة بلون مختلف. نظرَت إليهما ووضعتهما في كف إستبرق الملقاة في حجرها. وعلق الشيخ: لا تضيعيهما حتى يُشفى الجرح. اقترب من ظهرها وهو يستخرج من صرته شفرة حلاقة. ارتجف قلبي وتمنيت أن لا ترى إستبرق الشفرة، فلم يحدث، لأن الشيخ كان قد قصد ذلك.

مد أصابع إحدى كفيه إلى أذنها وطواها، مد الشفرة هناك وحز خلف الأذن بسرعة وخفة، ثم عاجل لتكرار الفعل بالأذن الأخرى. عند لحظة الجرحين أغمضت إستبرق عينيها وصرَّت فمها فقط. قرَّب الشيخ صُرته، وراح يأخذ قليلاً بين طرفي إصبعيه من مسحوق أصفر كان فيها، ويسد به الجرحين الذين أحدثهما، ثم أخرجَ عود ثقاب،

بللــه بلــسانه، غرسه في المسحوق وراح يُكحل به عيني إستبرق حتى تــركهما مغلقتين. ثم قرب الصُرة مفتوحة من أنفها آمراً: استنشقي، استنشقي بقوة. وبعدها ربط الصرة ووضعها جانباً.

استدارت كولاله وقرّبت المغسلة إلى صدر إستبرق والشيخ يقول: خلاص انتهى كل شيء، اغسلي وجهك.. وتمخطي.. تمخطي. ثم عاد إلى جلــسته السابقة جوار جدي شارحاً ما قام به: هذا لعلاج مرض (أبو صفار)، فتحتُ شرايينها ووضعت الدباغ، مسحوق قشور الرمان الجافة، مخلوط معه مسحوق حبات الشجرة المضيئة. هذه نبتة لا توجد إلا في قمــم جــبال حصاروست، تُثمر أجراساً صغيرة مثقَلة بحبوب صــغيرة، ولكــل جرس لونه الخاص الذي يضيء ليلاً، في الجرس سبع حــبات، وأدفع للمتسلقين خروفاً مقابل كل جرس.. إنها شجرة نادرة ويحــتاج الوصــول إلــيها والبحث عنها جهداً ومغامرة. نعم تضيء بأجراس ملونة.. مثل شجرة أعياد الميلاد عند النصارى. فسأل جدي: ومــا هذه؟. وتطوع أبــي ليشرح ذلك دون أن ينظر في عيني جدي: نعــم رأيتها عند أصحابــي الألمان وهم يحتفلون في الليلة الأخيرة من السنة. شجرة علقوا فيها أضواء ملونة وأجراس ورقية وأشياء أخرى.. هدايا وجوارب ملونة.

هــدأت الجلسة بعد ذلك. على وجه إستبرق أمل وارتياح. نحن نتــصت جميعاً إلى حديث الشيخين فيما تأتينا رائحة الطعام من الباب الموارب. الشيخ عبدالشافي تحدث كثيراً عن زبائن كثر يأتونه من أنحاء العراق ومن إيران وتركيا والكويت والسعودية والأردن وبادية الشام، يعالجهم، يستضيفهم، بعضهم ليومين ولا يأخذ منهم مقابلاً لذلك، لأنه يقول: هذا فضل من الله وأجري عليه هو. ثم نصح جدي لمعالجة مرض السُكر بتناول خبز الشَعير، وتقليل الملح، وترك السُكّر. "اشرب الشاي

مُـــراً، وجرعة من عصير شجرة الشيح عند صلاة الفجر.. إنه مُر.. مُر جداً كالعلقم ولكنه سينفعك، صدقني وستعود صحتك كالحصان."

كـــان الحـــديث بينهما يمتد، لهما الكلام ولي ولأبـــي الاكتفاء بالاســـتماع، وهما مسترسلان حتى حول مائدة الديك الرومي المحاطة بأكواب اللبن. صُفت أجزاؤه المشوية على كومة الرز المخلوط بالزبيب وأنـــواع الـــبهارات. تحـــدثا عن حقول التبغ وأزهار عباد الشمس في كردســـتان وعن الأبناء والأحفاد والملائكة وأصحاب رسول الله وعن أصـــحابهما المشتركين، ذكرياتهما أيام محاربة الإنكليز، وشتما الحكومة الحالـــية. وبعد شاي العصر وقفت سيارة أخرى في فناء الدار ترجلت منها عائلة كردية؛ أطفال وعجوز قالوا إنها قد أصيبت بعين حاسد.

ودعـــنا الشيخ، تعانقا هو وجدي الذي دعاه لزيارتنا إلى القرية فاعتذر بأنه لا يستطيع ذلك لأنه لا يعرف متى يبعَث الله له بمريض عليه واجـــب علاجه. وتعال أنت لزيارتي، فوعده جدي.. الذي لم يستطع الإيفاء بذلك لاحقاً.

في الطـــريق واصـــل جدي حديثه لنا عن ذكرياته المشتركة مع صديقه الشيخ. إستبرق كانت أقل طلباً للماء وأبـــي لم يكن مقتنعاً بما رآه مـــن عـــلاج لكـــنه كان يتظاهر بالرضى طاعة لجدي. لذا سأل أصحابه الألمان حين عاد إلى كركوك فأصابتهم الدهشة واتصلوا هاتفياً بـــصديق طبيب لهم في برلين فقال: هذا علاج ناجح أيضاً، إنه لمرض (اليرقـــان) حـــيث يذهَب مسحوق قشور الرمان في الدم إلى الديدان ويطـــردها. واطمأن أبـــي فيما كنتُ حائراً برسائلي إلى عالية طوال اليومين التاليين قبل نهوض إستبرق، إلى أن وجدنا مخبأً لنا وسط الدغل تحـــت أشـــجار الغرب قرب الشاطئ، فصرنا نسميه عشنا وفيه عرفنا قُبلاتنا الأولى ومص الأصابع والشفاه المطلية بالتّمر.

## - 6 -

قررتُ أن أذهب هذه الليلة، أيضاً، إلى مرقص أبـــي، علّي أجد فرصة مناسبة للحديث معه أو حتى نتفق على موعد أكيد أو على الأقل كـــي أعرفه أكثر.. هكذا حسمت الأمر وأنا أقترب من نافذة المطبخ المطلة على العمارة الجارة المتهرئة السقف بحيث اتخذت الحمائم أعشاشاً في مزاريبها. وكم حاولتُ تخريب هذه الأعشاش بعصا المكنسة لكنها كانـــت أكثـــر غوراً مما أستطيع الوصول إليه، لذا أكتفي بلعن الحمَام القـــادم من (ساحة بوابة الشمس) وسط مدريد ومن (ساحة إسبانيا) حيث تمثال الكيخوته وتابعه سانتشو، اللذين طالما كنت أجلس أمامهما مطـــيلاً التحديق أيام تصاعد الشوق إلى جدي وأبـــي، كأنهما هما في كـــل شـــيء!. فيما الحمائم حولي تأكل من أكف العجائز المتقاعدين المـــسترخين على المقاعد ومن بسكويت السائحين ثم تأتي لتذرق على ملابـــسي، ومن تحتها ملابس جارتي الكوبية. بل إنها تدخل أحيناً إلى المطبخ وتذرق في المواعين وعلى سطح الثلاجة حيث فتيت الخبز. وقد أكدت لي بيلار، حينها، أنها شهدتها بنفسها حين أفزعتها انطلاقة زوج حمَام أول دخولها إلى المطبخ عند أول استيقاظها صباح أول ليلة نامت فـــيها هنا، قائلة: لقد نسيتَ أنت نافذة المطبخ مفتوحة، لماذا لا تشتري لك قطة. أعرف محلاً فيه قطط جميلة.. جميييلة.. يا الله ما أجملها..!.

كنت قد تركتها تلك الليلة نائمة في فراشي فيما أمضيت الوقت في الظلمـــة متذكراً عالية.. تفاصيل انفراداتنا في المخبأ الذي اكتشفناه وســـط الـــدغل وأسميناه عشنا. حدث ذلك في اليومين التاليين لعودتنا

بإستبرق من بيت الشيخ الكردي الذي شرح أذنيها، فمنعتها أمي من الخروج وأعمال البيت ووضع قرطيها حتى تتماثل للشفاء، كنت أدور باحثاً عن عالية كي أعطيها قصيدة جديدة كتبتها لها ورسالة. أكرر المرور جوار منزلهم، فلا أرى الحصان، ثم من بين بيوت القرية وعرازيلها وصرائفها. أجوب جزيرتنا القشمرية مخترقاً الغابة صوب الشواطئ من كل الاتجاهات حتى وجدتها في الطرف الشمالي الملتصق بالجبل، خائضة في الماء تغسل وجهها ورأس الحصان خلفها يطيل الشرب. اضطربت وترددت حتى فكرت بالرجوع أو الاختفاء، لكنها التفتت فرأتني وأوقفتها المفاجأة. قالت: آه.. مرحباً سليم. ثم تلفتت حولها إلى كل الجهات وتلفتُ أنا أيضاً. لم نر أحداً. قلت وأنا أُخرج الورقة المطوية بعناية من جيبي فائحة بعطر أمي: أريد أن أعطيك الرسالة، إستبرق لا تستطيع الخروج من البيت، أريد الحديث معك.. هل أستطيع؟. قالت: أدخل في الدغل بسرعة.

تراجعتُ راكضاً لبضعة أمتار ووقفت في طرف الغابة مطلاً برأسي إليها. انتظرَت هي حتى ارتوى حصانها، ثم أخرجَت حبلاً من الخُرج الذي يحمله. شبكَت رأسه بالرسن دون أن تكف عن تلفتها المتفحص للجهات. وقادت الحصان قادمة باتجاهي تغوص قوائمه في الرمل مثلما تغوص ضائعة في ارتجافات قلبي الكلمات التي كنت حضّرتها للقول. توغلنا في الغابة فاتحين درباً للحصان خلفنا حتى ربطناه على جذع شجرة غَرَب ضخمة، هناك يأكل من العشب المزدحم تحتها، ثم درنا في المكان حتى وجدنا فسحة دائرية من الرمل ظليلة بفعل كثافة الأشجار المتشابكة في سمائها، فيما شجيرات أفتى من الأثل والسلماس والقصب تحيطها، يصل ارتفاعها إلى صدورنا. ولذا حين جلسنا على دائرة الرمل صارت أعلى منا بقليل. حدقنا ببعضنا وكنا

لأول مـــرة بهذا القرب.. كنا نسمع تسارع أنفاسنا ونبضات القلبين. سألتني عالية عن حال إستبرق فرُحت أسرد لها تفاصيل رحلتنا العلاجية مستثمراً ذلك في استعادة صوتي وهدوئي. كنا نتحدث بصوت خفيض فـــيه عذوبة استيداع الأسرار، وبعد الانتهاء أعطيتها الرسالة والقصيدة وسألتها: لم تقولي لي رأيك في قصائدي التي كتبتها لك. قالت: إنها غير دقيقة.. يعني إنها كذب في كذب.

صدمني قولها فوجدتني أضع كفي على صدري وأقسم لها صدق مـــشاعري نحـــوها. لكنها لم تدعني أواصل، فأوضحت: لا أقصد بأن مشاعرك غير صادقة، وإلا لما تبادلت معك الرسائل ولما جئت معك إلى هـــنا، وإنمـــا أقصد أن قصائدك لم تقنعني لأنها مليئة بالكذب: تصف نفسك بالفارس الذي يقطع من أجلي آلاف الرؤوس بضربة واحدة من سيفه. ولو كنتَ قاتلاً لأحد لما أحببتك أصلاً، ثم إن هذا غير صحيح يا ســـليم.. فأنـــت لم تـــر سيفاً غير سيف جدك المعلق في واجهة صالة استقبال الضيوف وربما لم تلمسه، ثم إنك لم تركب حصاناً في حياتك. وتصف عيني بالواسعتين كبحيرتين فيما ترى أنهما صغيرتان مثل فتقين أحدثـــتهما الفئران في ثوب، حتى أمي نفسها تشبهني بالصينيين قائلة: هاتي الصينية يا صينية. وأختي سلوى تصفهما بشيء آخر حين تغضب مني. قلت: ماذا؟.. قالت: لا.. لا، إني أخجل.

توســـلت بها أن تقول: عليكِ أن لا تخجلي مني بعد الآن. قالت حسناً.. سلوى تقول أن عيني يشبهان.. يشبهان فُروج الأرانب. قالت ذلـــك وهـــي تبتـــسم موشكة على الضحك، فلاحظت بأن عينيها الـــصغيرتين تغـــوران تماماً لتصبحا خطين صغيرين يجعلانها أكثر إغراءً كمـــن تـــنادي غامزة. وواصلَت: ثم تقول إن مشيتي هي التي علمت أغـــصان الأشـــجار كيف تتمايل مع الريح وتتحدث عن قلادة لي من

النجوم والقمر وإنني سيدة الكون، وما أنا إلا فتاة لا تعرف ماذا يدور خارج قريتها.. وغير ذلك.. أقصد كل هذا كذب يا سليم. فلا داعي له.. ورسائلك تكفيني بواقعيتها وصدقها كي توصل مشاعرك إلي.

كان شعوري بالخيبة كبيراً بحجم هذه المفاجأة، وأنا أستعرض انهيار جهودي وسهر الليالي على ضوء شمعة معتصراً نفسي ومتقلباً على قفاي وبطني في محاولاتي لتسطير قصائدي التي لا يتجاوز أطولها عشرة أبيات، لكنني كنت أشعر بصدق عالية ووجدتها على حق. لم أعلق وغيّرت الحديث إلى تفاصيل حياتية أخرى محاذراً، هذه المرة، من الانزلاق إلى التهويل والحلم.. على الرغم من شعوري بأن لقاءنا ذاك كان أشبه بالحلم وحبي المتزايد لها حلم لم يتوقف عن الاتساع.

اتفقنا على اللقاء اليومي هنا في هذا المكان الذي سميناه عشنا، ونهضتُ ماداً لها يدي أعينها على النهوض. كانت كفها لدنة مثل وسادة جديدة، وشعرت بأن للملمس طعماً أيضاً.. لأن كفها تركت في نفسي أثراً عذباً لم تتركه كل الأيدي التي صافحتها طوال حياتي. سرت معها حتى وصلت حصانها، أعنتها في فك الحبل ثم رافقتها حتى خرجت من الدغل باتجاه الشاطئ. امتطت الحصان بقفزة خاطفة وانطلقت ملوحة لي بكفها. بقيت في مكاني أراقب ابتعادها، وشعرها طائراً خلفها مثل جناح طائر سعيد، حتى اختفت، فعدت إلى بقعة جلوسنا، استلقيت على ظهري مستعيداً للتفاصيل، أنفاسها، صوتها، ملمس كفها، إغماضة عينيها وما قالت. كان الرمل يسرب برودته اللذيذة إلى ظهري وأنا أحدق بزوج فواخت في الأغصان المتعانقة وخلفيتها السماء.

حين نزلت الشمس القريبة خلف الجبل القريب، سادت العتمة المكان، فنهضت ورتبت عشنا، سويت الرمل، قطعت الأغصان الممتدة

إليه، رصفت الحجارة التي وجدتها على حافته الدائرية ثم عدت إلى البيت. لم أخبر إستبرق بشيء. كنت ساهماً بقول عالية عن كذب قصائدي. وبقيت في تلك الليلة أتحين الفرصة لطرح السؤال على جدي، ترددت كثيراً.. فكرت طويلاً في إيجاد الكلمات المناسبة لطرح السؤال خشية غضبه ونهره لي، وحين وجدته لم يعرج على الشعر في حديثه قلت: هل تحفظ كل أشعار عنترة يا جدي؟ قال: أحفظ الكثير له ولغيره ولكن لا أدري إن كانت القصائد التي أحفظها له هي كل أشعاره. فقلت وأنا أعرف بأن جدي يمقت الكذب ويعتبره "أشد بلاء حتى من القتل لأنه الخطوة الأولى إلى كل المعاصي" : ولكن ألا ترى بأن قصائد هؤلاء الفرسان فيها الكثير من المبالغات.. بل وتصل إلى حد الكذب أحياناً؟.

توقعت أن يكون رد فعله عنيفاً أو أن يصمت مفكراً لبرهة، كما يحدث معه حين يُسأل عن قضايا تتعلق بالشَرع، لكنه أجاب فوراً وبجملة واحدة: "إن أعذَب الشعر أكذبه". ثم عاد لمواصلة قصته التي كان يسردها تلك الليلة. فيما بقيت أنا تحت وطأة مفاجأة أخرى لا تقل عن المفاجأة التي سببها لي قول عالية. لم أستطع استيعاب عبارة جدي جيداً في حينها، لكنني كنت قد حسمت الأمر بعدم معاودة كتابة الشعر مرة أخرى كخلاص من التناقض الذي أوقعاني فيه.. ثم لماذا أكتبه إذا كانت عالية لا تنتظره مني؟. قلّت قراءتي للشعر بعد ذلك، وما كنتُ أقرأه منه بين حين وآخر، رحت أراقبه وفق ما قالته عالية ووفق ما قاله جدي. و لم أعد لكتابته إلا قبل أربعة أعوام هنا في لحظات اشتداد الحنين الذابح إلى عالية. كتبت مقاطع قليلة ومتفرقة، لم أنشر منها شيئاً ولا أفكر بذلك.. فقد تبدد حلم طفولتي في أن أصبح شاعراً ذا شأن، أو حتى كاتباً محترفاً، وما القصص القصيرة الثلاث التي

نـــشرتها في صحف المعارضة العراقية في لندن إلا ذكريات من أيامي في الجـــيش ســـطرتها لنفسي كي أؤطرها أو كي أتخلص منها أو لإشغال ســـاعات الفراغ هنا بمحاولات في التعرف على الذات والاقتراب منها أكثر.

رحـــنا نلتقي يومياً في عشنا، الذي صار أوسع قليلاً، أكثر نظافة وترتيباً وأكثر حميمية. غالباً ما يكون اللقاء في ساعة القيلولة حين ينام أهلـــنا. رحـــنا نتعرف على بعضنا أكثر، نحب بعضنا أكثر. جلبتُ لها دفتـــري الذي ألصق فيه صور الفنانين والفنانات وصوراً لمشاهد تشبه الحلـــم الـــذي أحدث عالية في أخذها إليه، صور من الإعلانات التي أقـصها مـــن المجلات الألمانية التي يجلبها أبـــي، بيت خشبـــي أبيض تحيطه الأشجار وفي حديقته ورود ملونة على حافة بحيرة شديدة الزرقة، وخلفـــه جبل على قممه قبعات بيضاء من الثلج تلامس غويمات بيضاء هي الأخرى، لكن عالية كانت أقل انفعالاً مني بالأحلام..

تعلمـــتُ مـــنها الرضى والقناعة والواقعية واستعذاب التعامل مع الموجودات البسيطة التي تحيطنا.. تعلمت منها رباطة الجأش أيضاً والثقة باللحظات الراهنة. وفي دفتري صور أخرى لنساء بعيون خضراء وشعر أشـــقر أختـــرع لهن أسماءً وأقول بأهن ممثلات عالميات، متظاهراً بسعة معرفتي بفناني العالم على الرغم من أنني لم أكن قد دخلت صالة سينما في حـــياتي آنـــذاك. ولأننا نسارع إلى اللقاء وزاد تفكيرنا ببعضنا. كنا نـــنهض عـــن موائد أهلنا قبل أن نشبع، فأجلب معي حفنة من التمر، ألفهـــا في ورقـــة وأدسها في جيبـــي، وكانت عالية مثلي ومثل جدي وغالبـــية آل مطلـــق، تحب التمر كثيراً. حين نفدت حفنة التمر الأولى بقيـــنا نرفع أكفنا الدبقة مؤخرين ذهابنا إلى الشاطئ. ولا أدري كيف تـــناولت كفهـــا ورحـــت أمص أصابعها، فأعجبتها الفكرة وتناولت

بـــدورها أصابعي تمصها وتضحك في البداية.. ثم استسلمنا لخدر لذيذ وارتعاشـــات غامـــضة قادت شفاهنا إلى بعضها دون أن تفلت يدها أصابعي أو يدي أصابعها.

تلك أول وأعذب قُبلة في حياتي، شفتنا عالية رفيعتان. ومثل بقية جـــسدها الذي رحت أكتشف تفاصيله لاحقاً؛ لدناً ومتيناً في الوقت نفـــسه، ليس مائعاً كالزبد لكنه كالجبن في طراوته. لشفتيها طعم التمر والإنـــسان، هذا ما اكتشفته حينها: للإنسان طعمه الخاص أيضاً كما لكـــل فاكهـــة أو كائن. صمتنا طويلاً بعد القبلة الأولى نحدق ببعضنا باضطراب ومخافة، كنا نتحاور في النظرات و لم ننطق بكلمة واحدة بقية اللقاء، نهضنا إلى الشاطئ، غسلنا أيدينا ووجوهنا، ثم ذهبت وبقيت أنا بعدها وحيداً كالعادة. لم أعد إلى العش وإنما بقيت على الشاطئ، أُلقي الحـــصى بعيداً وسط النهر، ثم جلست على صخرة مثل أبـــي ودليت قدمي في الماء ساهماً حتى المغيب مستعيداً طعم القبلة وخائفاً من الله.

في تلك الليلة نمت متأخراً بعد تقلب طويل في الفراش واستيقظت قبل الشمس متعرقاً مرتعباً إثر حلم رأيت فيه نفسي في الجحيم وزبانية جهـــنم، الـــذين وصـــف جدي عملقتهم وقسوتهم، يسخنون الحديد ويكوون به شفتي. أزيز مفزع. وتصعد مع دخانهما رائحة الشواء فيما كـــنت أشعر بوجود الله مشرفاً على عقابـــي، يراقب تنفيذه من مكان مرتفع لا أراه. وصوت جدي يدوي غاضباً: إنه يستحق، لقد حذرتهم جميعاً.. اللهم إني بلغت. اللهم فاشهد.

دفعت الدثار ونظرت حولي، كان الدخان يرتفع مع رائحة خبز أمي الصباحي من التنور في طرف الحوش. نهضت قفزاً وركضت أروي ظمئـــي مـــن الجرة التي تتركها قرب الباب، شربت كثيراً من الماء و لم أرتوِ. كنت أشعر بجفاف شفتي ووخز فيهما.

في اداء اليوم التالي، ترددت كثيراً في تقبيل عالية لأن جهنم كانت في رأسي مصحوبة بصوت جدي ونظرات الله. لكنني لم أستطع مقاومة إغـراء اللذة فقررت تجاهلهما، تأجيل التفكير فيهما، وأن خطيئتي هذه ليست كبيرة كالزنى، كنت أقول لنفسي مبرراً: عذوبة تقبيل عالية في هـذا العالم تستحق أن أحتمل من أجلها عذاب كوي شفتي في العالم الآخر.

صـارت حـصة الكلام بيننا أقل لأننا رحنا نمضي أكثر الوقت بالتقبيل. أحـبها.. كأنني "في جنة عالية لا تُسمع فيها لاغية". وتمتد أكفنا إلى الظهور، الأرداف، الرقبة، الشَعر ورمانات الأكتاف.. لكن عالية أبعدتهما حين نـزلا إلى الصدر أول مرة نحو إغراء بروز حلمتيها الـرافعتين لقماش ثوبها الشفيف مثل حبتي حمص. قالت: حرام. فقلت لها: سنتزوج.. نتزوج؟.. تهلل وجهها واحتضنتني بقوة ثم تركت لكفي حـرية التسلل من صدر فستانها.. وتمددنا على الرمل. صارت لاحقاً تمنحني نفسها كلياً.. وأحبها كلياً كأنني "في جنة عالية قطوفها دانية".

تحـتفظ بأكثر التمرات طراوة إلى آخر وجبتنا التي راحت تُثرى بالخبز والخيار والتين. تفتح التمرة بأسنانها، تستخرج منها النواة وتلقيها إلى الـدغل، تمـرر التمـرة الخاوية على أصابعها مثل خاتم، ثم تمنحني الأصـابع لأمصها. أراها تغمض عينيها الصغيرتين اللتين تتحولان إلى خطـين ترتفع منهما شعيرات الرمشين.. يحدث هذا لعينيها تماماً كما يحدث لهما حين تضحك أو تتبسم بقوة. أحياناً تترك في إصبعها التمرة الخاتم لآكلها قبل مص الإصبع. أحياناً تأكلها هي حين لا تستقر التمرة علـى إصبع منتصب. بعد الأصابع تطلي شفتيها بالتمرة التالية.. كأنها تتمكيج، تطلي شفتي وتدسها في فمي ثم نغرق بامتصاص طويل لشفاه بعضنا البعض.

لعالية زغب خفيف على شارها لا يراه إلا اثنان: محب لها أو كاره. المحب، أنا، يرى فيه مكملاً لجمالها ومؤخراً للمحافظة على عسل التمر مما يطيل في عمر القُبل. أما الكاره فيتخذ منه عيباً يهوّله لأنه لا يرى في جسد عالية من عيب آخر. تماماً كما يحدث الأمر مع صغر عينيها اللتين صرت أحب صغرهما وغورهما في وجهها حين تضحك أو تستسلم لعذوبة تلامسنا.

سألتني إستبرق، بعد أيام حين راحت تتماثل للشفاء، عن رسائلي، فأخبرتها بمسألة العش الذي نلتقي فيه، دون أن أدلها على مكانه، والذي نترك فيه رسائلنا لبعضنا فيه حين يتعذر اللقاء. ندسها في فَطر حددناه في أسفل جذع الشجرة المنتصبة على حافة العش الذي تستند عليه عالية أحياناً، أو تحت حصاة بيضاء اتفقنا عليها. قلت: يا إستبرق رجاءً لا تخبري أحداً بذلك أبداً. قالت: اطمئن. وقد فغرت فاها دهشة، وربما أقامت لها مع صراط عشهما الخاص أيضاً، لأنها صارت تختفي من البيت كلما وجدت فرصة لذلك.

لاحقاً.. أخذت عالية تفتح أزرار صدر ثوبها أو تخلعه ثم تطلي نهديها بعصير التمر وتستلقي على قفاها على الرمل، مغمضة عينيها وتاركة لي لعقهما، مصهما، حبهما.. ولها التأوهات الراعشة. ذلك ما جعلني أبدأ لاحقاً بالنظر إلى المرأة من صدرها، ولعالية نهدين مثاليين، ليسا كبيرين ولا صغيرين، حين أفتح كفي على أحدهما لا يفيض منه عنها إلا القليل وتنتصب حلمتها تحت لساني. عالية مثلي ومثل جدي في عشقها للتمر، لكنها أشد مني محبة للنهر.. شدة حبها له هي التي جعلتني أحبه أولاً. لكنني رحت أغار لاحقاً من كثرة حديثها عنه وهو أمامنا، تصوره أجمل مما أراه، ثم صارت علاقتي به مزيجاً من العداء والمرافقة بعد أن غرقت فيه عالية أواخر صيفنا ذاك.

[illegible]ها، ذات مرة، ألا تبتعد في الماء عند السباحة. وأجابتني: لا [illegible] إنه صديقي.. وكانت تقول: إن الحياة هدية جميلة من الله يا سليم، ليس لنا أن نعترض على حجمها أو طولها، وإنما نتقبلها بشكر ومتعة. لذا كلما تذكرت عالية أشكر الله وأعاتب الحياة على أخذها مني أجمل هدية منحتني إياها.. على أخذها مني عالية. أعاتب النهر وأرميه بالحجر وأبكي ثم أرمي بنفسي في أحضانه متمنياً أن يأخذني إليها.

أخذها مني مساء العيد، حين كنا نخرج جميعاً إلى شاطئ النهر. تتجمع العائلات على الحافة التي يلتقي فيها الرمل بالحصى، تفرش ملاءاتها على الأرض وتصف الأمهات أواني الأطعمة والحلويات المصنوعة ليلة الأمس. الأطفال يلعبون متراكضين حول دوائر الكبار والجبل يردد صدى صرخاتهم. الآباء يقيمون المواقد ويشوون اللحم فتختلط دموعهم التي يسببها الدخان بالتي يسببها الضحك. نسبح في النهر كلاً في جهة مخصصة وغير بعيدة، الرجال هنا والنساء - دون أن يخلعن فساتينهن - هناك، وللأطفال فقط حرية التنقل بين الجهتين متوسلين بالكبار أن يعلموهم السباحة. وجدي يردد آمراً: علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل.

كان يجلس هناك منفرداً على كرسيه الوحيد في المنتصف، على تلة واطئة يراقب الجميع. لقد جلب له أبي هذا الكرسي من كركوك حين ازداد مرض السكر امتصاصاً لبدنه حتى نتأت عظامه وصار الجلوس المباشر على السجادات يؤذي ظهره وعظام حوضه، لذا يصطحب معه وسادة هي مربع إسفنجي يضعه تحته أينما جلس، بما في ذلك على الكرسي الوحيد في القرية وكان مثار إعجابنا جميعاً لأنه يُطوى ونشعر بخفته حين يحمله أحدنا سائراً خلف جدي إلى المكان

الذي يريد. يقول أبـــي إن الألمان لديهم الكثير من الكراسي ومثل هذا ما يستعملونه للاسترخاء عراة تحت الشمس.

كـــل الأمهات يجلبن نماذجَ من أفضل أطعمتهن لجدي، لكنه لا يأكـــل إلا القلـــيل ويوزع المتبقي على الأطفال المقتربين إليه. كنا نحن الفتـــيان نـــسترق النظرات إلى جهة النساء متصيدين مشاهد التصاق الثـــياب بالأجساد كي نجترها لاحقاً في اهتزازاتنا السرية. بعضنا كان يبالغ في ابتعاده في النهر أو يتفنن بقفزاته كي يلفت إليه نظر الفتيات.

فجـــأة تعالى الصراخ من جهة النساء: عالية.. أين عالية؟.. عالية غطست ولم تطلع.. عالية تأخرت بالطلوع. تراكضنا جميعاً إلى هناك. اختلطـــنا. خـــرجت جمـــيع النساء من الماء واصطففن على الشاطئ مـــصفرات الوجوه مرتعبات وأصابعهن تشير إلى موضع غطسة عالية الأخـــيرة. كانـــت أمها أشدهن صراخاً، تصيح وتندب على صدرها، وكان قلبـــي أشد قلوب الحاضرين انخلاعاً.

ألقيـــنا، نحن الذكور جميعاً، بأنفسنا في المكان الذي خرجن منه وحيث تشير الأصابع. كنت أغطس أعمق ما أستطيع. أفتح عيني تحت الماء غير مكترث بدخول خيوط الطحالب فيهما. لا أرى سوى الحصى في القـــاع بقعاً واسعة، ولا أخرج حتى أوشك على الاختناق. فأرفس القـــاع بقدمي وأنطلق إلى الأعلى دافعاً رأسي إلى السطح، أعب الهواء لاهـــثاً على عجل خاطفاً نظري إلى من حولي عل أحدهم وجدها، ثم أغطـــس قبل أن تشبع رئتاي من الهواء.. كانت دقائق متوترة، مريرة، كابوساً من دقائق، من أيام، من أعوام.. كابوساً طوله العمر بأكمله.

الـــتقطني أبـــــي حـــين انتبه إلى تخبطي قربه وأنا أوشك على الاختناق. أتقيأ ما كرعته من ماء، رفعني بذراعيه القويتين وسحبني إلى الـــشاطئ ناهـــراً. كانت سيقان النساء الواقفات تطوقني، وأمي تقعي

حواري تمسح الماء عن وجهي ومخاطي بذيل ثوبها. فيما أُفلت وجهي من كفيها كي لا أنقطع عن مراقبة الباحثين، وصدري يعلو ويهبط بفعل تسارع التنفس وطبول القلب. أمي تشد على ذراعي كي تمنعني من النهوض. اقتربت إستبرق من خلفي مشفقة تحيط ظهري بمنشفة وهي تحتضنني، كفاها تمسحان كتفي بمداعبات مهدئة تفيض حناناً وأشعر بارتجافها.. ثم انفجارها بالبكاء وسقوطها علي محتضنة حين شاهدنا جميعاً أحدهم يرفع جثة عالية إلى السطح. كفاي تحاصران وجهي دون أن أحول عيني عنها، ولا أقوى على النهوض.

يرجع العويل من جهة الجبل أشد علواً مما ذهب. تحلّق السابحون حول حاملها، سحب أحدهم ثوب عالية مغَطياً ساقيها فيما يتقدم بها حاملها نحونا. كانت نائمة على ذراعيه والماء يقطر منها، شعرها الطويل يتدلى مثل ذراعيها. وكان آخره هو آخر من ودع النهر خارجاً منه ومتصلاً به عبر خيط الماء الذي جعل من شعرها شبيهاً بذيل حصانها حين تغسله.. وليس شبيهاً بجناح طائر سعيد حين كان يطير خلف رأسها ممتطية حصانها المنطلق.

اقتربوا.. عالية نائمة على ذراعي حاملها بوداعة وتمطر على النهر من أنحائها. كل شيء فيها يشير إلى الأسفل، إلى النهر، قدماها، ذراعاها، أصابعها، شعرها، ثوبها.. باستثناء صدرها؛ مرتفعاً كما عرفته. قبتان.. والثوب المبلل يكشف التفاصيل. كان ذلك آخر ما رأيته منها قبل أن تغيب خلف الأجساد المحيطة بها وهي تحملها إلى حيث كان يجلس جدي. مددوها هناك أمامه على الحصى الناعم منتظرين منه ما ينصحهم بفعله. الكل انسحب إلى هناك. صفا سطح النهر وأنا لا أقوى على النهوض. سقط رأسي بين ركبتي محاطاً بذراعي وأجهشت بالبكاء. إستبرق تحضنني من الخلف ويهزنا بكاؤنا معاً فيما

ضمتني أمي إلى صدرها، تقبل رأسي وتقول: أعرف يا حبيبي.. أعرف كل شيء.. لم تقل أكثر من هذا حول حبي لعالية بعد ذلك أبداً، لكنها كانت ترقبني بعينين حانيتين وقلب كسير. وازداد في الأيام اللاحقة قرب إستبرق مني، مواساتها، شفقتها ومشاركتها لبكائي وحيدين في الغرفة الموصدة أو على الشاطئ.

كانت ترافقني أحياناً في زياراتي السرية إلى قبر عالية الوحيد في سفح الجبل قبل أن يتحول فيما بعد إلى مقبرة واسعة لموتى قريتنا. تبحث معي عن الحصى الأبيض لصفه على القبر، تنظف الشاهدتين الصخرتين وتعترف: أنا الذي أخبرت أمي بعلاقتكما، فرِحَت كثيراً وقالت أن أم عالية قد فرِحَت أيضاً واتفقتا على أن يفاتحا الأبوين بزواجكما ليكون في العيد القادم.

لم أجد أية رسالة من عالية في شق الجذع الذي كانت تسند عليه ظهرها في عشنا مانحة إياي صدرها المطلي بالتمر. لم أجد رسالة تحت الحصاة البيضاء، و لم أعد إلى العش بعدها أبداً حين وجدت في آخر زيارة له أن أحدهم قد تغوط في منتصفه حيث لم يعد عشنا سرياً مادام أحدهم قد وجد فيه مكاناً مناسباً للتغوط.

مشهد عالية النائمة وهي تمطر على النهر كان آخر ما رأيت. وصدرها الحي وسط موتها أكثر مشاهدها حضوراً، اصطحبته معي دائماً. وكان أنيسي مع التمر في لحظات عصف شوقي إليها. مرتين فقط استحضرته لممارسة اهتزازاتي السرية؛ مرة حين كنت في الجيش على مثلث الحدود العراقية التركية السورية عند ضفة نهر الخابور، وبعد خفارة حراسة ليلية طويلة كانت عالية أنيستي الوحيدة فيها، مشتاق إليها إلى ملامستها. صورتها تشيع في شراييني الدفء وارتعاش العذوبة.

انحدرتُ إلى النهر، بعد أن سلّمتُ دور الحراسة للجندي اللاحق. كان القمر ساطعاً يجلل الكائنات والفضاء بضوء فضي. تركت بندقيتي على الشاطئ، خلعت ملابسي فوقها وجزمتي جوارها ثم تسللت إلى الماء بهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد نهديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز وأهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، بالخجل وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت.

قررت عدم تكرار ما فعلت. لكنني كررته قبل أربعة أعوام حين نامت بيلار في فراشي بعد حفلة التقبيل وتلمس ثدييها. فبعد أن شعرت بأنها قد غفت وعطرها يملأ المكان، فيما أنا ممددٌ على الكنبة في الصالة أتحسس المتوتر تحت بجامتي وأتذكر عالية.. حتى بقي على موعد خروجي إلى عملي في توزيع الصحف نصف ساعة، نهضت إلى الحمّام، أغلقت بابه خلفي بإحكام، وبحذر من إحداث أية ضجة. ملأت الحوض بالماء وتمددت فيه بهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد نهديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز وأهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، وبالخجل، وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت. ثم سارعت في الاغتسال. ارتديت ملابس العمل وتناولت تمرتين وجرعة حليب بارد ثم خرجت تاركاً بيلار في فراشي، ومشعلاً سيجارتي حال خروجي من باب العمارة.

حين وصلت مقر الشركة، وجدت أنطونيو جالساً في السيارة بانتظاري ويدخن، بعد أن أكمل رزم وتحميل الصحف التي علينا توزيعها. جلست قربه خلف المقود وأدرت المحرك ثم سقتها منطلقين كالعادة. صفعني على ساقي اليمنى قائلاً بقصد: عرفتُ بأنك ستصل

متأخراً.. ها كيف كانت ليلتك؟. قلت له: تمام.. لكنني تركتها نائمة في شقتي. قال: لا تقلق. بيلار فتاة جيدة أعرفها منذ زمن طويل.. على فكرة إنها تنجذب إلى الأجانب أكثر. آخر أصحابها كان إيطالياً.

جمعت ملابسي من حبل الغسيل، وأحكمتُ إغلاق نافذة المطبخ، متذكراً ما قالته بيلار، كي لا يدخل الحمَام. حاسماً قرار ذهابـــي هذه اللــيلة إلى مــرقص أبــي. قالت روسا هذا الصباح، بكلمات عربية لفظتها بركاكة، بأن السهرة هذه الليلة ستكون جميلة.. وليس هذا هو الذي يدفعني للذهاب، إنما أبــي.. علي أن أجد فرصة للحديث معه، أو نــتفق على موعد أكيد.. أبــي الجديد الذي طلع في حياتي هنا.. هكــذا فجأة كرأس ينبثق من الماء بعد غطس طويل... تُرى هل مازال أبــي يتذكر مساء العيد الذي غرقت فيه عالية؟.. هل مازال يتذكرها كما أتذكرها أنا بعد كل هذه الأعوام؟.

## - 7 -

وصلتُ إلى المرقص في الساعة الثانية عشر إلا ربع ليلاً في نية لاستباق ازدحامه، كما هو الأمر في بقية المراقص، حيث يبدأ الصخب الراقص بعد الواحدة ويمتد حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. مرقص القشامر في شارع بينيراس Veneras على الرصيف الأيسر حين تكون - مثلي - قادماً من تقاطع سانتو دومينغو، أسفل عمارة قديمة، ربما كان مخزناً لها في البدء وأيام الحرب الأهلية الإسبانية. ولكن الزمن فتح له باباً على الشارع الضيق ليتم استخدامه كمحل لبيع المشروبات أولاً ثم مرقص يكتريه الآن أبي وصاحبته روسا، بعد أن أعادا ترتيبه ليكون كذلك. يقابله الآن على الرصيف الأيمن محل لعائلة صينية يبيع المواد الغذائية والكرزات والمشروبات البسيطة والسجائر حتى ساعة متأخرة من الليل لأنها تعيش في القسم الخلفي منه.

البوابة الخارجية للمرقص سوداء من خشب، وجدتُ أمامها فتاة تبكي وفتاها يسترضيها، يقبلها فتدفعه بليونة وتمسح عينيها. كانا يقفان تماماً أمام العبارات المكتوبة باليد. حين مددت يدي إلى مقبض الباب أزاحا نفسيهما عنه قليلاً. تلي البوابة الخشبية بوابة أخرى من شبك حديدي. كانت مفتوحة ومربوطة بسلسلة على الحائط، ثم درج نازل على امتداد مترين ونصف تقريباً، ينعطف في منتصفه وكله مغطى بسجادة حمراء معتمة.. بل تكاد تصبح سوداء بفعل كثرة مرور الأحذية عليها وتنفسها للدخان الذي كان، مع الموسيقى الصاخبة، هو أول من استقبلني حال فتحي لبوابة الخشب السوداء. ثم لغط المتحدثين

وضحكات تتعالى، عرفت منها ضحكة روسا ثم ضحكة أبـــي بعد أن صـــرخ بأحـــدهم بالإسبانية: كابرون..(يا تيس). حين نـــزلت آخر درجـــة وجدتهم يقفون قرب البار، وبالفعل لم يكن عددهم يزيد عن خمـــسة عـــشر شخصاً، كلهم يحيطون بأبـــي، كؤوسهم في أيديهم ويضحكون.

فاطمة في مكانها الدائم خلف البار، قرب صندوق الحساب. وما إن رآني أبـــــي حتى ناداني باحتفالية وقادني إلى تجمعهم، يُعرفني على الـــواقفين بحـــركات مسرحية: سليم.. هذا سليم. ثم تلا أسماءهم وهو يشير إلى كل واحد منهم واضعاً سبابته في صدره، بما في ذلك الفتيات، حـــيث يضع إصبعه بين نهودهن أو عليهن ساحباً إياه بسرعة بحركات كوميدية ويضحكون. فيهم ألمان وهولنديون ونمساويون وأسبان، فقد قـــدم آخرهم، وكان بديناً قصير القامة: خسوس.. كابرون. وانفجر الجميع بالضحك. لم يقل لهم إنني ابنه وإنما: سليم. فقط. ثم لف ذراعه على كتفي حين وقفت جواره مبيناً لهم حميمية علاقتنا. وسألتني روسا: ماذا تشرب؟ فقلت لها: لا شكراً.. ليس الآن.. سأطلب بنفسي.. بعد قليل.

كـــان أبـــي يتحدث مع البعض بالألمانية ومع آخرين بالإنكليزية ومـــع الأســـبان بكلمات معدودة أكثرها شتائم لكنه يستعين بفاطمة للترجمة حين يتطلب الأمر ذلك، أو بروسا التي يتحدث معها بالثلاث: الألمانية والإنكليزية وبشيء من العربية. يحمل في إحدى كفيه كأساً وفي الأخرى سيجارة، ومع ذلك لا يكف في أثناء التكلم عن استخدام يديه والـــتلويح بهما. وما أكثر ما كان يلف ذراعه التي تنتهي بسيجارة على رقـــاب الآخـــرين. أما إذا رمى السيجارة فأصابعه تقبض أينما وقعت قارصة لحم المحيطين المنتشين بحضوره الصاخب.

تواصل وصول زبائن جدد نازلين عبر المدخل الأسود بسجادته الحمراء كلسان ممدود يشبه فماً مفتوحاً يتقيأ أشخاصاً كلهم يأتون إلى دائرة المتحلقين حول أبي ويتمازحون معه فتكبر دائرتهم وتحتشد، ولأن أغلبهم يعرف أغلبهم وجدت نفسي شيئاً فشيئاً على هامش الدائرة، وحيداً لا أعرف أحداً منهم ولا أجد مدخلاً أو مقدرة في نفسي على إيجاده للتداخل مع مزحاتهم المتآلفة بصخب ضاحك أو ضحك صاخب، فانسحبت بهدوء نحو دكة البار وجلست على مقعد مرتفع بين حنفية البيرة وصندوق الحساب، قبالة مكان وقوف فاطمة الدائم. حييتها فابتسمت بعذوبة فيما كفاها لا يكفان عن تنشيف الكؤوس المغسولة بمنشفة مربوطة في طرَف صدرية العمل البيضاء التي تعلقها في رقبتها كصدريات الطبخ.

قالت: ماذا تريد بيرة ألمانية أم إسبانية.

قلت: لا هذه ولا تلك فأنا لا أشرب البيرة ولا أي مشروب كحولي.. أعطيني كوكا كولا لايت.

قالت مبدية دهشة لا أعرف مدى جديتها: صحيح لا تشرب!.. ممتاز والله.

- وأنتِ؟.

- أنا أيضاً لا أشرب الكحوليات.. وإذا ما اضطررت للمجاملة أحياناً فأشرب بيرة خالية من الكحول.

- كم سنة لكِ هنا في إسبانيا؟

- أربع سنوات تقريباً.

- ومنذ متى تعملين هنا؟.

- منذ ستة أشهر.. منذ افتتاحه.

- وكيف؟.. أعني كيف وجدتِ هذا العمل؟.

ضحكَت مميلة برأسها إلى الخلف ومستبدلة الكأس الناشف بآخر مبلل كي تنشفه.

- إنها الصدفة.. أو الحظ.. لا أدري.. فقد كنت مارة من هنا ذات صباح ودخلت إلى المحل الصيني، الذي أمامنا، تعرفه؟.. أردت أن أشتري بعض الدفاتر والأقلام وأشياء أخرى.. يعني قرطاسية لأختي، هي صغيرة عمرها أربعة عشر عاماً، وأريدها أن تكمل دراستها ولا تتركها مثلي.

مع ازدياد الداخلين تزداد الكؤوس الفارغة التي تجلبها العاملتين الأخريين من أنحاء المرقص إلى فاطمة، كما يحملن عائدات بعض الطلبات لآخرين. وكانت فاطمة تتوقف عن حديثها معي لتحادثهن، تأخذ منهن العائد الفارغ وتملأ لهن المطلوب، فيما أنتهز أنا الوقفة الحوارية لارتشاف شيءٍ من الكوكا كولا وللنظر إليها بتمعن أو لاستطلاع المحيط، حيث اختفى أبي بين الجموع، لا يُرى منه إلا رأسه بضفيرته الملونة، ولا يُسمع منه إلا ضحكته المجلجلة عالياً والمسوّرة بصدى ضحك الآخرين.. وتتخلل ذلك شتائمه بكل اللغات.

- المهم.. وجدتُ هناك السيد نوح، صاحبكَ، كان يبحث عن أشياء تتعلق بالترميمات الأخيرة: براغي ومسامير وزوايا رفوف وأشياء من هذا النوع.. فاصطدم بي داخل المحل وقال على الفور بالعربية (عفواً).. فأجبته أنا بالعربية: لا شيء.. وهكذا قال لي: أنت عربية؟!.. وراح يسألني عن الأسماء الإسبانية للأشياء التي يريدها، وأساعده. فقال لي بعد أن وقفت معه كمترجمة حتى انتهى من الدفع: هل تريدين العمل؟.. قلت: نعم ولكن بماذا؟. فقادني إلى هنا حيث كان عمال الديكور على وشك الانتهاء.. وهكذا رحنا نتحدث بالأمر حتى

اتفقنا.. لكن المفاجأة التي قد لا تصدقها، تكمن في الشرط الذي فرضه عليّ قبل الاتفاق.. عفواً لحظة..

اقترب منها أحدهم، ربما هولندي، يطلب منها شراباً ممزوجاً (كوكتيل) وبما أنه لم يكن يعرف التعبير بالإسبانية سألته فيما إذا كان يتحدث الفرنسية فقال نعم وراحا يتحدثان بالفرنسية حتى أنجزت له ما طلب وابتعد شاكراً.

فعادت للاقتراب مني وعلى وجهها ابتسامة عذبة تشي بأنها تتعلق بما ستروبه.

- لقد اشترط عليّ أن أحفظ "سورة البقرة" كاملة قبل أن يوقع العقد لي.

ضحكة أبي تجلجل، والدهشة تهزني لذا ربما سألتها: أأنتِ متأكدة؟!.

- أقسم بالله العظيم.. وأهداني نسخة من القرآن.. أنا أيضاً قد أصابتني الدهشة مثلك.

- ها.. وبعد؟.

- أخذتُ القرآن وقلت له أمهلني أسبوعاً..

الزحام يتزايد في المرقص وأربعة أشخاص دنوا يسألون فاطمة شراباً فيما إحدى العاملات تطلب لآخرين، فجاءت روسا وسألت فاطمة فيما إذا كانت بحاجة إلى أن تساعدها إحداهن.. قالت: لا. في البداية، ثم قالت: نعم. بعد أن جاءت زبونة أخرى وفتاها. أظن بأنها التي كانت باكية في الباب عند دخولي. استدارت إحدى الفتيات العاملات من أقصى دكة البار لتقف مع فاطمة استجابة لأمر روسا التي دنت مني وربتت على كتفي بلطف وقالت بتقليدية مديرة متجر محترفة: ها.. كلشي تمام؟.

- نعم، شكراً.

- أنظر إليه.. هو الآن في أوج احتفاليته.

- نعـــم.. نعـــم.. أراه.. أو بالأحرى لا أرى إلا ضفيرته وهدير ضحكته.

ضـــحكت هي الأخرى وابتعدت لشأن آخر.. أدركتُ من ذلك أن دورها هو الإشراف العام، ودور أبـــي هو مرافقة الزبائن، وفاطمة صندوق الحساب وتحضير الكؤوس والطلبات تساعدها إحدى النادلتين إذا ما اشتد الزحام.

كانـــت تبتسم لي كلما اقتربت من الصندوق الذي أجلس أمامه وأسند ذراعي على حافته.. وحين لم يبق إلا اثنان تولت الفتاة الأخرى أمرهما، فوقفت فاطمة أمامي دون أن تكف كفاها عن العمل في تدوين فـــواتير الحسابات أو تنشيف الكؤوس أو إعداد الصحون الصغيرة من الزيتون والبطاطا.. فسألتها:

- وماذا حدث..؟.

- وافقت بالطبع.. لأنها فرصة كنتُ أنتظرها ومن خلالها أحصل علـــى عقد جيد في عمل ثابت بعد أن أمضيت الأعوام السابقة بالتنقل بـــين تنظيف البيوت ورعاية الأطفال والشيوخ.. وفي مطاعم مهاجرين بلا عَقد..

- وحفظتِ سورة البقرة كاملة؟.

- نعـــم.. فقد رحت إلى البيت وحبست نفسي فيه كتلميذة تُعِد لامتحان البكالوريا، فلم أكن قبلها أحفظ من القرآن إلا سوراً قصيرة.. وكانت أختي تساعدني في الحفظ وتضحك مني في الوقت نفسه، وهي تراني مثلها أدرس من جديد.. ولكنني بقدر ما استغربت هذا الشرط.. بقدر ما منحني الثقة بالسيد نوح..

- ومازلت تحفظينها؟.

- نعم.. لأنه يمتحنني بها في نهاية كل شهر قبل أن يمنحني راتبي ويخصم مني يورو واحد على كل خطأ.. فيما يكرمني بخمسين يورو على راتبي إن لم أخطئ فيها.. هكذا كان الاتفاق.. يمتحنني بلا كتاب فهو يحفظ القرآن كاملاً.

لم أجد ما أقوله غير جحوظ عيني.. وثمة انتعاشة لأملي الغامض بكون أبي مازال، في جوهره، كما عرفته، فيما يزيد من حيرتي ودهشتي هذا الذي أراه منه وفيه.. هذا المغاير له تماماً.

- وماذا عن بقية الفتيات العاملات.. هل اشترط عليهن شيئاً؟.

- لا.. طبعاً.. فهن إسبانيات نصرانيات والأمر مختلف.. روسا هي التي اختارتهن.. وأنا الوحيدة التي اختارها السيد نوح، متخذاً مني مترجمة له أيضاً كما قال لروسا.. وروسا لا ترفض له طلباً.. إنها تحبه بجنون، وتقول بأنها لم تعرف رجلاً مثله في حياتها أبداً.. وفي الحقيقة أنا كذلك لم أعرف رجلاً مثله بقوة شخصيته وكبر قلبه وذكائه وحيويته.. أنت من قريته أيضاً من العراق؟.

- نعم.. نعم.

- أنا أحب العراقيين، كلنا نحن المغاربة نحبهم.

ثم ابتعدَت تساعد الفتاة الأخرى، وبقيت أنا أشعل سيجارة إثر أخرى، مرتشفاً الكوكا كولا ومتفحصاً ما حولي. ازداد الضجيج واحتشد المرقص بشباب من شتى الجنسيات والتوجهات.. ولا أدري كيف اجتمع فيه الهيبيون والسياح والشقر والسود ومهاجرون ومثليون جنسيون والرؤوس الحليقة من العنصريين.. الكل غاطس في غيمة الدخان وتأرجح كرة الأضواء الملونة في السقف فوق دكة المسرح حيث ارتقاها أعضاء فرقة برازيلية وراحوا يأخذون مواضعهم مع آلاتهم

الموسيقية، يتفحصونها والمغنية السمراء تعدل مشد صدرها وتتأكد من جاهزيّة الميكرفون. صعد أبي وافتتح الحفل بفقرة كوميدية، هي خليط من لغات وروسا تترجم أحياناً، مازح خلالها بعض القريبين منه. ضحكٌ. تصفيقٌ... ثم اشتعل المكان بأغاني السامبا وماجت الأجساد راقصة يهزها الطبل الذي يقرعه أسمر مفتول العضلات متصبباً عرقاً وهو يعض على شفته تركيزاً تارة ويطلق صرخته نشوة ساخنة أخرى.. تزيد من اشتعال اهتزاز الراقصين..

نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. نظرتُ إلى فاطمة فوجدتها تتحرك بكثرة، تكاد تطير بين الجهات تلبي الطلبات كنحلة مؤدية عملها بلباقة وخفة دون أن تكف عن التبسم. وعلى الرغم من طغيان الصخب الذي يجبرنا على تقريب الوجوه والصراخ عند التحدث.. سألتها:

- كيف تم جمع كل هؤلاء المتناقضين معاً؟!.

ضحكت وقالت: - الكل يسأل السؤال نفسه.. إنه صاحبك نوح، لذا يسميه بعضهم بالرئيس أو المعلم وبعضهم يسميه المسيح لأنه جمع بين الذئب والحمل وآلف بينهما.. لكنه يرفض تسمياتهم ولا يقبل إلا اسمه الذي يجده البعض أكثر تطابقاً معه لأنه جمع في مركبته الواحدة بين كل الكائنات على اختلاف أنواعها.. وروسا تقول إنه يحب اسمه كثيراً ويقول بأن الله هو الذي سماه بهذا الاسم.

فجأة.. ومثلما يحدث في مشهد فيلم كوميدي، بينما كنا نتحدث عن قدرته على الجمع بين المتناقضين بسلام، تعالت ضجة وصياح بين زبونين وسط حلبة الرقص، وطارت من هناك قنينة بيرة فارغة تحطمت على أصابع الكف اليسرى لفاطمة التي كانت تمسك بالحنفية من أعلى تصب لأحدهم، فصرخت واختلط دمها بشراب الكأس الذي كانت

تملأه. توقفت الموسيقى وانبثق أبــي من بين الجموع مقترباً من فاطمة يهدئها ويتأكد مما أصابها؛ فكان جرحاً موزعاً على ظاهر أصابع كفها الأربعة، قال لها: آسف.. وبسيطة. وأمرني بشد جرحها والعناية بها ثم عاد إلى المتخاصمين وعلا صوته على أصواهم جميعاً، زاجراً، وفرق بين المتخاصــمين بمــساعدة آخــرين حتى باعد بينهما وأجلسهما، وهو يشتمهما ويؤنبهما وسط صمت الجميع..

في أثــناء ذلــك، انــتقلت أنا إلى خلف دكة البار مع فاطمة، وأمسكت بكفها الدامية أغسلها بالماء وأُهدؤها، فيما في الحقيقة كانت هي هادئة أصلاً، لكن المفاجأة قد أفزعتها قليلاً. ورحت أنشّف كفها بــصدريتها التي سارعت هي إلى خلعها، ورأيت حجم صدرها لأول مرة، فوجدته صغيراً لكنه بنهدين متينين متباعدين ومنتصبين مثل نهدي فــتاة في أول طلوعهما. جاءتني روسا بقطن ولفاف طبيين، وقنينة يود أخــرجتهما مــن صندوق صيدلية صغير كان معلقاً في إحدى الزوايا المظلمــة.. فأجلستُ فاطمة على كرسي قريب ورحت ألف لها كفها دائراً حول الأصابع منفردة ثم مجتمعة.

كــان أبــــي قــد صعد إلى دكة المسرح غاضباً، وراح يخطب بالجمع عبر الميكرفون، مذكراً إياهم بشروط محله، ورفضه للعنف بكل أشــكاله، مازجاً في أسلوبه بين الجدية والمزاح. وبعد انتهائي من شد كف فاطمة، نهضَت معي وذراعي على كتفها، ورحنا نتطلع إلى أبــي الذي وجدته يقول في تلك اللحظة خاطباً بالإنكليزية مترجماً لنفسه إلى الألمانــية وروســا جــواره مترجمة إلى الإسبانية: هذا مكان للفرح، للتعايش، للتسامح، للتعارف، للحب، للسلام، للرقص، للحياة، للتقبيل (يقــبل روسا ويضحك الحشد) وللتمتع بمداعبة الأجساد والمؤخرات (يمــد يده إلى مؤخرة روسا فيضحكون ويصفقون). ممنوع العنف هنا

والتعالي والعنصرية وادعاء القوة والبطولات، ومن يريد منكم العنف والفروسيات والبطولات الفارغة فهذا جواز سفري (يخرج جواز سفره من جيبه ويرفعه) ليأخذه وليذهب إلى العراق وأنا أضمن له هناك بأنه سيجد العنف.. سيعلمونه الأدب، سيدسون له عضلاته في مؤخرته وسيأكل الخراء الذي يريد.

فتعالى الضحك والتصفيق. نزلَ وصالح بين المتخاصمين وجعلهما يعانقان بعضهما ويعتذران، ثم أشار إلى الذي رمى القنينة التي جرحت أصابع فاطمة أن يعتذر لها، فتقدم منا ألماني بدين وراح يعتذر لفاطمة، فقال له أبي من خلفه: قَبِّل كفها يا حمار.. مثل الرجال المحترمين للسيدات المحترمات. ففعل الشاب مبتسماً وابتسمت فاطمة وهي تقدم له كفها. وصفّق الجميع فيما صرخ أبي بالفرقة الموسيقية: والآن هيا لنواصل سهرتنا.. فتعالى الصخب والرقص من جديد.. ثم عاد أبي إلى فاطمة واحتضنها قائلاً: فطومتي حبيبتي.. كيف أنتِ؟. تفحص كفها الملفوفة وقالت له: لا.. بسيطة.. جرح خفيف. وقال لها: يمكنكِ أن تذهبي إلى بيتكِ أو بيتي أو حتى بيت سليم إذا أردتِ. قالت: لا.. أنا بخير ويمكنني البقاء هنا والقيام بمسألة الحسابات على الأقل.

- حسناً كما تريدين.. اجلسي إذاً، ومتى ما شعرت بالألم أو بالرغبة بالمغادرة يمكنك أن تفعلي ذلك.

ثم صفعها على مؤخرتها، وعاد ليغيب وسط الحشد تتعالى ضحكته على الصخب. قلت لفاطمة:

- أين تسكنين؟

- في منطقة باراخاس، قرب المطار.

- وكيف تذهبين إذاً كل ليلة؟!.

- أحياناً آخذ تكسي وإذا ما تأخرت آخذ المترو عند أول فتحه في السادسة.

- وبيت السيد نوح؟.

- هنا قريب في الشارع المجاور.

- عموماً إذا أردتِ أن تذهبي إلى بيتكِ أو بيته أو حتى إلى بيتي، فأنا على استعداد لمرافقتكِ.

- لا.. شكراً أنا بخير.

خرجتُ من خلف دكة البار وعاودت الجلوس في مكاني أمامها. وبعد ساعة تقريباً حين وجدت الأجواء تعود إلى طبيعتها. الرقص يتواصل والشرب يتواصل وفاطمة تواصَل عملها في الحسابات بكفها اليمنى دون أن تغادرها ابتسامتها. دونت لها عنوان بيتي على منديل ورقي أخذته من علبة أمامي، وودعتها ثم غادرت باتجاه بيتي.

# - 8 -

لم أستطع النوم إلا متأخراً. كنتُ أدخن وأستعيد ما حدث وما عرفته اليوم عن أبي. إذاً فهو ما يزال يحفظ القرآن، ويُقر معتزاً بصيغة تسميات جدي لعائلتنا التي يعتبرها أسماء اختارها الله لنا. يفرض على فاطمة حفظ سورة البقرة فيما يصفع مؤخرتها كلما مرت بقربه!.. وهو الذي ثار كالثور وقلب حياتنا كاملة بسبب شاب صفع مؤخرة أختي إستبرق!.. يدير هذا الجمع المتناقض من الناس وهو الذي كان طوال حياته يترك شأن إدارة عائلتنا بل وإدارة نفسه لجدي.. يطيعه بلا نقاش، بل ودون النظر إلى عينيه!.. يشرب الآن خمراً بنهم وهو الذي لم يكن ليترك صلاةً أو صياماً أو أمراً دينياً دون تنفيذه!.. يعاشر روسا وهي ليست زوجته!.. (وكيف يعاشرها بعد ما أحدثه التعذيب الكهربائي في خصيتيه؟!).. فمه يتدفق بأقذع الشتائم بكل اللغات.. وهو الذي لم ينطق في حياته بكلمة نابية!.. ضحكته أشد صخباً من ضحك الآخرين مجتمعين.. فيما كان إذا ضحك؛ لا يتجاوز التبسم لأن المؤمن الصالح إذا ضحك عليه ألا يقهقه!.. أفكر بأن أبي في داخله اثنين، هناك كان يخفي الذي يمارسه هنا، وهنا يخفي الذي كان يمارسه هناك.. دون أن يتخلى عن أحدهما نهائياً، وأحياناً يطَعِّم أحدهما بالآخر.. فماذا عن طبيعة موت جدي إذاً؟!؟.

كان حلم جدي تشييد ما يمكن تسميته بالمدينة الفاضلة أو القرية الفاضلة، على الأقل، لذا فإن حدث الاصطدام بالحكومة كان بمثابة فرصة مواتية لتنفيذ هذا الحلم، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير في

العـــامين الأولين من انتقالنا. مكان نموذجي للعزلة، شبه جزيرة صغيرة يطوقها النهر من جهات ثلاث والجبل من الجهة الرابعة. جعل المسجد مركـــزها، أكـــبر وأهم وأجمل مبانيها على الرغم من كونه مجرد صالة كـــبيرة بمحراب، ألحق بها غرفة صغيرة وحمّام، وصنع رفوف مكتبتها بنفسه من أغصان أشجار الغرب والطرفة واضعاً عليها كل كتبه التي لا يـــزيد عددها على الخمسين، أكثرها دينية وتاريخية وأساطير شعبية.. كانـــت بمجملها رصيد قراءاتي الأولى حيث قرأتها كلها لفائض الوقت حينها.

إن عـــدم تأخر جدي باختيار المكان وقرار الرحيل إليه.. ربما هو التفـــسير الأدق لـــوقفاته الطويلة المتأملة منَ نافذة مضيف بيتنا في قرية الـــصُبح على مدى أعوام.. ربما كان تفكيراً بهذا الأمر. وإصراره على قـــبول التـــسمية المُهينة في بداية الأمر والوعد بتغيير التسمية بعد الثأر للكـــرامة، خطوة تكتيكية مقصودة، تنطوي على نيته في تحديد هدف لـــنا، علينا النضال من أجل تحقيقه، وربطه بالتسمية يعني تذكرنا الدائم لـــه. وقال حينها: ليكن النبـــي قدوتنا، في كل شيء، فهو الذي غير اسم (يثرب) إلى (المدينة المنورة) بعد أن هاجر إليها، ليحقق هناك نواة الدولة الإسلامية التي امتدت إلى بقاع الأرض من بعده. ونحن أيضاً بعد أن نثأر لكرامتنا سنسمي قريتنا هذه بالأحرار أو المطلق أو الكرامة.

حينها.. وحتى اليوم لم تكن تعجبني تلك التسميات لكونها مغرقة في عمومـــية تقليديـــتها، بل إنني كنت في داخلي أفضل عليها تسمية (القشامر)، على الأقل من ناحية جمالية لفظها الصوتي، وربما إن أبـــي كان لديه الرأي ذاته فقد سمى مرقصه هنا بالاسم نفسه.

في العـــامين الأولـــين من انتقالنا، لاحظنا توقد الحيوية في جسد جـــدي وفي ذهـــنه.. بـــل وتحسن في صحته، حيث لم يكتفِ، أكثر

الأحيان، بإعطاء الأوامر والخطط (الهندسية!) والإشراف على العمل، وإنما يعسر عليه منع يديه من المشاركة فيه. كان يقول: ستكون هذه بلدة طيبة، دستورها القرآن ونظامها الشريعة، سنجعلها نموذجاً للفضيلة وقاعدة أرضية ينطلق منها الناس إلى الجنة السماوية. فكان يمارس فيها دور الحاكم المطلق الذي لا تفوته التفاصيل، يحمل أعوامه التي قاربت الثمانين مستنداً على عكازه الباكستاني ويطوف القرية يومياً، يعمل على عقود الزواج ويبارك المبكر منها ويقيم الحد على المخطئ ويصلح بين المتخاصمين. يزور المرضى ويقرأ على مواضع أوجاعهم رقىً ونصوصاً قرآنية. ينهر النساء الكاشفات عن سيقانهن أمام طشوت الغسيل ويحاسب التي تثقل منهن بالحِمل على حمارها ويقدم النصائح ويعلم الصغار والكبار شؤون دينهم ودنياهم.. يتدخل في كل شيء ويهيمن على كل شيء.. حريصاً على تطبيق ما كان يسميها (حدود الله) بحذافيرها.

جعل من صالة المسجد المجاورة لبيتنا مسكناً له، ومقراً لإدارة كل الشؤون، هناك الصلاة واللقاء والاحتفالات الدينية، وهناك مجلس القضاء والسمر والنجوى والتعبد، وهناك المدرسة التي تعلمنا فيها جميعاً، وهناك الكتب وعلب حلوى وكيس تمر وسم للفئران وسيف موروث..

اختار أكثرنا سُمرة وقوة كمؤذن.. اقتداءً باختيار الرسول لبلال الحبشي. ولأنه لم يشأ تغيير اسمه، أمره بتسمية ابنه بلال، وكان يناديه بـ (أبو بلال) حتى قبل أن يأتيه من أطلق عليه هذا الاسم فعلاً. وأمر ببناء درج يرتقيه إلى السطح ليطلق آذانه من هناك، فكنا نصحو فجراً على صوته الذي صار أجمل مع مرور الوقت وتعليمات جدي، كما كنا نقيس الوقت وفقاً لمناداته الخمس إلى الصلاة. فيما خصص آذان

صلاة الجمعة لأبي، ربما بقصد إجباره على المجيء من عمله في كركوك نهاية كل أسبوع، وقد كان أبي هو الوحيد الذي يغادر القرية، ليصبح، على هذا النحو، صلة الربط الوحيدة بالعالم الخارجي، ولشدة طاعة أبي لجدي.. فكنتُ على يقين من أنه سيترك العمل الذي يحبه لو أن جدي قد طلب منه ذلك.

اشترط جدي عليه أن يكون دربه عبر الجبل وليس عبر قرية الصُبح، حيث اتخذ أبي لنفسه درباً صنعته الماشية لعبور الجبل إلى الضفة الأخرى والوصول إلى الطريق العام الذي يربط الموصل ببغداد، ومن هناك يُوقف السيارات الذاهبة باتجاه الموصل ومنها إلى كركوك. كان، أحياناً، يذهب ماشياً لأكثر من ساعة لعبور الجبل، وفي أخرى يرافقه أحدنا على حمار حتى هناك، فكنت أنا أكثر من يفضل القيام بهذه المهمة لأن أبي يحدثني عن العالم الخارجي خلال الطريق وعن الألمان الذين يحبهم. يقول عنهم: يعجبهم كثيراً أكل الحلوى ولديهم منها شتى الأنواع، سأجلب لك في المرة القادمة قطعة شكولاته.. إنهم مثل عائلتنا المهووسة بالتمر لكن حلواهم لا تُحصى بألوانها وطعمها. ومن ذلك، أيضاً، أذكر حديثه ذات مرة عن الألمانيات، فاسترسل كأنه وحده.. أم تراه قد قصد الإيحاء لي بالصداقة، ومعاملتي كرجل حينها؟!: الشَعر كحقل القمح في موسم الحصاد.. زغب نهودهن وعاناتهن حفنة عشب ذهبية.. لكن الرائحة!؟.. المؤخرات هي الأقل جمالاً فيهن لأنها ليست كروية تماماً وإنما بمثابة امتداد للظهر والفخذين.. مؤخرات بلا هوية!. لو وضعن الكحل الأسود وسط وجوههن الذهبية دائرياً على عينين خضراوين.. شيء مذهل الجمال.. مذهل!. أثداء عامرة رجراجة، وجوه وأجساد كالزبدة.. ولكن كأنها بلا ملح.. فهل لأن الزبدة تؤكل مع السكر لا مع الملح؟. كثرة

البديـــنات.. ضخمات الجثث.. طويلات تصل قامات بعضهن بارتفاع تلك الشجرة.. تلك.. هل تراها؟.. نعم.. صدقني.. هن أقل ثرثرة من غيرهن ممن عرفت من الأجنبيات. باردات بعض الشيء.. أفلهذا يحببن الشمس؟.. وفي الشمس يصبحن حمراوات كالطماطم.

يحـــدثني عن أجانب آخرين كنت أتخيلهم عشائرّ مثلنا، فرنسيين وتايلـــنديين وأمـــريكان وهنود.. وإنكليز يقول عنهم: لا أحبهم لأن ابتـــساماتهم صفراء. فأتساءل لحظتها في نفسي عن سر بغضه للإنكليز لأن ابتـــساماتهم صـــفراء مقابل حبه للألمان الذين لهم شَعر أصفر..!، لكـــنني ســـرعان ما أتجاهل تساؤلي لعدم فهمي لمعنى كون الابتسامة صفراء، ولكي لا أقطع استرساله المتوهج في حديثه عن الألمان: هناك في بـــلاد الألمان، يا سليم، تتوفر اشتراطات الاشتهاء العربـــي، يعني: الماء والخـــضرة والـــوجه الحسن. ألمانيا كلها عبارة عن حقل أخضر.. هل تفهمـــني؟.. ربما هم جادون حد الجفاف واليباس في التعامل.. كأنهم يعيـــشون للعمـــل وحسب.. إنهم عنيدون، مثل جدكَ، ولهذا يلين لهم الحديد فيصنعون به أفضل السيارات.. ناجحون في الحديد والموسيقى.. يـــشدهم الـــتحدي لهذا بنوا بلدهم بعد الحرب بسرعة وتفوقوا على عدوهم في البناء.. هناك لديهم الحرية. كل إنسان يقول ما يريد ويفعل مـــا يـــريد دون أن يتدخل في اختياراته أحد.. الحرية يا سليم.. آه.. الحـــرية.. هل تفهمني يا سليم؟؟. أقول: نعم يا أبـــي. على الرغم من أنـــني كنت أتخيل ما يقوله على طريقتي أكثر مما كنت أفهم ما يعنيه. كـــان الأمـــر بالنسبة لي صوراً مدهشة كالصور التي حفرها في مخيالنا جـــدي عـــن الجنة. أطعِّم أوصاف جدي بأوصاف أبـــي حد التطابق أحـــياناً والفرق هو أن الذي يصفه أبـــي موجود في الأرض أما الذي يصفه جدي فوجوده في السماء.

في أثناء صعود الحمار للجبل يضعني أبي أمامه كي لا يميل جسده الضخم على جسدي الصغير، وعند النزول يُردفني خلفه كي أستند على ظهره. وكانت لحظات تطويق ذراعي لجسده واحتضانه هي أحب اللحظات إلى نفسي.. حيث الإحساس بقربي لأبي واتحادي به. كنت أشعر بحنان لذيذ وثقة ودفء لأنها أشد حالات التصاقي به، أشعر بحب كبير له وبحبه لي.. وكأنه هو الذي يحتضنني وليس العكس.

عند الوصول إلى الشارع العام، ينزل هو ويأخذ حقيبته من الخرج ثم يقول: كما تعرف؛ إن رضا الله من رضا الوالدين وأنا راض عنك يا سليم مهما تفعل، ولكن عليك أن تحرص على إرضاء جدك وأمك أيضاً.. أوكي؟.. فأهز رأسي بالموافقة وأتمتم: أبي لا تنس.. فيقاطعني مبتسماً: نعم أعرف.. سأجلب لك مجلات ألمانية ملونة.. لا تهتم. يلف ذراعه حولي محتضناً دون أن يُنزلني عن الحمار ويقبلني. وهي المرات الوحيدة التي يقبلني فيها، فلم يفعل ذلك بحضور أحد على الإطلاق، لأن جدي يرفض التربية المائعة للرجال.

- اذهب الآن.. مع السلامة يا سليم.

أسحبُ حبل الحمار مستديراً: مع السلامة يا أبي. وأظل أتلفت إليه وأنا أبتعد حتى أراه وقد صعد إلى إحدى السيارات، وحين أكون على مسافة نرى فيها بعضنا يلوح لي من نافذة السيارة بكفه وألوح له.. وأظل ناظراً إلى السيارة وهي تبتعد إلى أن تصبح نقطة صغيرة تتحرك على الخط الأسود للشارع وتغيب.. بعدها أواصل درب عودتي مفكراً به وبالمجلات الملونة الألمانية التي سيجلبها لي وأقص من صورها، ألصقها في دفتري وأريها لعالية واعداً إياها بحلم شبيه بالصور.

.. كأن علاقتي بأبي كانت علاقة عاطفة وروح فيما علاقتي بجدي علاقة عقل ونُظم. فلم أكن مختلفاً عن غيري من أبناء قرية

القشامر من حيث شعورنا والتزامنا الكلي بالمنظومة التي خلقها لنا جدي وربطنا بها، وخاصة أنها كانت مريحة وناجحة ومتطورة في العامين الأولين، حينما ساد الرضا والانسجام والتوافق حياة الجميع. وكانت ذروة احتفاليتنا هي صلاة الجمعة حين نجتمع جميعاً، كباراً وصغاراً، الذكور يشكلون الصفوف الأمامية وصفوف النساء خلفهم. نلبس أفضل ثيابنا ونتعطر. وفي الربيع نفرش سجاداتنا على الحصى والرمل خارج المسجد ويقف جدي مرتفعاً أمامنا على دكة الدَرج الخارجي، يخطب بنا فنشعر بتوحدنا الكامل وتآخينا ونقاء أرواحنا وقربنا من السماء والله. حيث تهدر تكبيراتنا عند الصلاة ويدوي نطقنا المشترك لكلمة (آمين) مُتحداً مع أصوات أمواج النهر وحفيف الأشجار، وصداها البعيد على سفح الجبل يمنح المناخ رهبة أسطورية شبيهة بتصورنا عن يوم القيامة.

كانت تلك أشد لحظاتنا توحداً وسلاماً وطهرانية روحية.. نشعر بأن لنا روحاً واحدة. أما على صُعد الذهنية والمفاهيم فقد كنا نشعر بتوافق تام وكأن لنا عقلاً واحداً مشتركاً نفكر به أو يفكر لنا.. ألا وهو جدي.. الذي كان حتماً سيحقق حلمه بالقرية الفاضلة لولا أن فاجأنا ذات صباح هدير الجرافات في أعلى الجبل وهي تشق على مسار درب أبي الصغير شارعاً عريضاً نحو قريتنا جاءتنا عبره الحكومة بمسؤوليها وأعمدة الكهرباء وأهدتنا التلفزيونات وبنت لنا مدرسة من الإسمنت.. وباءت كل محاولات جدي لصدها بالفشل، لذا صار أكثر حزناً وغضباً وهزالاً.

لقد اشتدت الحرب على الجبهة مع إيران لذا كانت الحكومة تبحث عن المزيد من الشباب والرجال في كل زوايا العراق لتجنيدهم. كانت صحة جدي تزداد انهياراً كلما رأى تزايد انهيار حلمه، وتقيأ دماً

حين عرف بأن الحكومة قد سجلت قريتنا في أوراقها الرسمية باسم قرية (الفـــارس) قاصدة بذلك الدكتاتور، لذا أعاد جدي في خطب الجُمع اللاحقـــة تأكـــيده لـــنا على التمسك بتسمية القشامر حتى يوم الثأر للكرامة.. يوم نُبدل لها اسمها المنتظر بقرية (الأحرار) مثلاً.

اتسعت الجبهة على جدي ومع ذلك لم يكف عن محاربته لما فيها، ووسيلته الأقوى خطب صلاة الجمعة: التلفزيون هو الشيطان في بيوتكم وسيفسد عليكم نسائكم، إنه (الأعور الدجال) ولهذا فهو بعين واحدة. مدرسة الحكومة تعلم أبناءكم الكفر والابتعاد عن الله. الشرطة كلاب الظالم. الحرب على إيران المسلمة عدوان لا يقبله الله. هذا زمن صعب يكون فيه المتمسك بدينه كالقابض على جمرة من نار، فاصبروا واقبضوا على دينكم مهما تكويكم جمرة زمانكم، فهي أهون من أن تدخلوا نار جهـــنم في الآخـــرة وتخلدوا في الجحيم. لكن خوف الناس من بطش الحكـــومة كان أكبر من خوفهم من تهديدات جدي المؤجَّلة حتى العالم الآخر.. فراحت خيوط السيطرة تنسل من بين أصابع جدي على الرغم أن الناس ظلوا في القرية يظهرون له التبجيل والطاعة.

لقـــد تمكنت الحكومة من إحصائنا مجدداً بعد أن جاءت بشرطة يفوقونـــنا عدداً وتسليحاً، واستخرجت لنا بطاقات جديدة حاذفة منها لقـــب القشامر وكذلك لقبنا القديم تاركة إيانا على أوراقها بمجرد أسماء حـــيادية بلا ألقاب. وبعد أن حددت عدد الشباب والرجال المؤهلين للعـــسكرة أمرتهم بالذهاب إلى الجيش، لكنهم امتنعوا بعد خطبة ثائرة لجـــدي، لذا قررت المداهمة ليلاً للقبض عليهم واحداً واحداً، فأعدهم الـــشيخ ملا مطلق للمقاومة، ووزعهم مسلحين بالبنادق والمسدسات والفـــالات والفـــؤوس والهراوات والسكاكين على أسطح البيوت وفي خنادق بينها ووسط الأدغال وخلف صخور أسفل السفوح.

في تلـــك الليلة، التي كانت ستنجلي عن خراب ومجزرة حقيقية، كـــان لأبـــي الفضل في إنقاذ القرية حين تمكن من قطع الكهرباء من المحـــولة الرئيسية القائمة في وسط القرية، مما جعل الحكومة تتراجع عن المهاجمـــة الليلية للقرية، وجاءت نهاراً إلى البيوت واحداً واحداً. اضطر الرجال بعدها للذهاب مع الشرطة طوعاً كي لا يُهانوا على مرأى من نـــسائهم وأطفالهم. وما كان لجدي من حيلة أخرى غير مواصلة الشد مـــن تصبير الناس بوعود الفرج القريب.. ومقابل ذلك راح يكثف من دروســـه للصغار في المسجد، منافساً ومصححاً ما تقوم بتعليمهم إياه مدرســـة الحكـــومة. حتى جاءت الضربة القاصمة لظهره وروحه؛ يوم نـــــزل، قبيل الغروب، رتل سيارات حكومية كنمل أحمر زاحفاً على الـــتواءات الشارع الأسود، وتوقفت وسط القرية مُنـــزلة سبعة عشر تابـــوتاً ملفوفة بالأعلام فيها جثث شباب القرية الذين قُتلوا في الهجوم الأخـــير علـــى الجبهة، وكان بينهم أحمد وفندي وصالح وناصر وقيس وحـــسن وجمـــال ومحمود ومضحي وخيرالله وعبدالله وصراط، حبيب أختـــي إستبرق، وأخـــي حكيم. أنـــزلوها وغادروا صاعدين برتل ســـياراتهم علـــى سفح الجبل وغابوا تاركين لقريتنا أشد لياليها سواداً مفجـــوعة بالعويل المُر.. مزقت النساء الأعلام لأنهن كن بحاجة لتمزيق أي شـــيء، وخاصـــة بعد منع جدي لهن من شق الثياب جزعاً على الأموات.

تحولت ساحة القرية إلى بقعة من الجحيم البكائي حول التوابيت. وجلس جدي على كرسيه صامتاً يكظم بكاءه حتى منتصف الليل حين هـــد الحزن سدود تصبره فانفجر بالبكاء وسقط مغشياً عليه.. فحملناه إلى فراشـــه في زاوية المسجد.. وهناك، بعد أن رششنا على وجهه الماء البارد وفتحنا رأس بصل أمام منخريه، صحا قليلاً وأمر المتحلقين حوله

من الرجال بعدم دفن الجثث إلا بعد الثأر لها هذه المرة.. وغفا غائباً في غيبوبته الأخيرة.

على مدى أسبوع كامل راحت معه الجثث تتعفن وتنتشر رائحتها في كل مكان.. على الرغم من محاولات النساء في رش العطر وتكويم باقات الزهور على التوابيت، والرجال يعاودون جدي المسجى، يكررون عليه طلب السماح لهم بدفن الجثث، دون أن يجرؤ أحدهم على تذكيره بأن الإسلام مع الإسراع في دفن الميت، فهو أعرف منهم، لكنه كان يرفض بهز رأسه دون أن يفتح عينيه!.

قريتنا لم تعد تطاق برائحتها وبكآبة أهلها، تحولت إلى كابوس خانق، قل الكلام بين الناس وساد الصمت إلا من نحيب النساء، كف الأطفال عن اللعب واكتفوا بتمضية الوقت الفائض بالتجوال التائه والتحديق. أبي لم يذهب إلى عمله وظل إلى جوار جدي يوضئه عند كل صلاة ويوجه وجهه إلى مكة فيراه يصلي بعينيه من خلال رؤيته لتحرك جفنيه المطبقين وتحريك الشفاه. حينها قررت أنا المغادرة بعد أن أمضيت الأيام الأخيرة بالتجوال بين زيارة قبر عالية وعُشنا والشاطئ الذي غرقت فيه.

لم أستطع النوم في ليلة القرار الأخيرة، فكنتُ أتقلب في فراشي وأنهض عنه، أجول حول البيت ثم أعود إليه.. حتى بدأ الفجر يتململ في ولادته، فحسمت الأمر بأن أخبر أبي وأغادر. توجهت صوب صالة الجامع لأنه ينام هناك إلى جوار جدي، وما إن مررت قرب النافذة حتى سمعت صوته يجادل حانقاً. توقفتُ، ونظرتُ من النافذة فلم أر شيئاً بحكم الظلام، لكنني بقيت متسمراً في مكاني وأنا أقشعر لسماع صوت أبي بهذه النبرة الغريبة لأول مرة في حياتي.. كان صوته قوياً واثقاً وفيه تفجُّر احتباس ومعاتبة مريرة.. يتوجه بها إلى جدي الذي لم أسمع له إجابة..

أبـــي يصرخ بوجه جدي حتماً، إذا ما كان أمام وجهه في هذه الظلمـــة، ومـــن بـــين ما تناهى إلى سمعي قوله وسط اختناقاته بالبكاء والغـــضب: أبـــــي أوقِـــف صعودكَ وتعاليك وخفف قليلاً من ثقل كرامتك، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. لن تُصلح العالم وحـــدك، لن يكون العالم كما تريد ولا كما يريد أي أحد، كف عن تعالـــيك على ضعفنا فنحن بشر وجثثنا تتعفن. ارحم ضعفنا وواقعيتنا وأخطائـــنا.. أبـــــي، بالنـــسبة لي، أنتَ إله أو ممثل الرب في الأرض أمامي.. لكنني بشر محكوم بمحدوديتي، والبشر يتمردون على آلهتهم في لحظـــات ضعف أو في لحظات قوة.. أبـــي إنني أختنق بقيودكَ وأضيق ذرعـــاً بأوامرك ونواهيك. إن روحي تقوى بالتزامها بك لكنها تتوق للتنفس بعيداً عن رقابتك.. أبـــي إني أحبك بشكل يفوق محبتي لنفسي أحـــياناً، لكنني في أحيان أخرى أتمنى عدم وجودك.. أبـــي أحدثكَ في الظلام لأنني لا أستطيع رؤيتك. لم أنظر إلى عينيك في حياتي ومع ذلك فهمـــا أشد حضوراً من عينيَّ ذاتهما. أرى بعينيك أنتَ اللتين لم أرهما فيما عيناي تتوقان لممارسة وجودهما قبل التعفن.. جثثنا تتعفن يا أبـــي فارحم ضعفنا.. إنك تقودنا إلى الهلاك..

بـــدأ الفجر يتنفس وصرت أرى أبـــي منحنياً على جسد جدي وجهاً لوجه وكفاه على صدره أو على جانبيه.. وجدت نفسي أرتعش بفعـــل ما سمعت وما رأيت، لذا سارعت بالمغادرة عائداً إلى فراشي.. أرتجـــف، وكنت أشك في كوني نائماً أو يقظاً، مبلّلاً بالعَرق وحلقي جاف. تكورتُ كالجنين تحت اللحاف ورحت أفتح عينيَّ وأغلقهما في الظـــلام مستمعاً إلى قرع دقات قلبـــي وتسارع تنفسي.. حتى سمعت صـــراخ أمي: يا ويلي الملا مات. وأبـــي ينادي لآذان الفجر من على سطح المسجد.

نهضتُ ووضعت في حقيبتي من أشيائي ما استطعت، ثم سارعت بالتسلل إلى سرير إستبرق، المريضة حزناً على فقدها لصراط، في الغرفة المجاورة وهمست لها: إستبرق حبيبتي، لم أعد أحتمل البقاء هنا، سأغادر القــرية، سأغادر البلد كله، سأهجر كل شيء هنا ولا أدري إلى أين ســأذهب ولا كــيف.. ســأذهب إلى أي مكان آخر ولا أدري متى ســأعود.. لكــن الذي أعرفه هو أنني لم أعد أحتمل البقاء هنا لحظة واحدة.. إنني أختنق.. إنني أختنق حد الموت.

## - 9 -

استيقظتُ على قرع جرس الباب الخارجي، ونظرت إلى ساعة المنبه جوار رأسي فوجدهّا السادسة إلا عشر دقائق صباحاً. نهضت متوجهاً إلى سماعة هاتف الباب، وسألت: نعم.. مَن؟.

جاءني الصوت: - أنا فاطمة.. آسفة لإزعاجك ولكنني أريد التحدث معك.. ضروري.

- هاه.. فاطمة.. اصعدي.. اصعدي أنا في الطابق الرابع، تفضلي.

تركتُ الباب مفتوحاً وسمعت خطواهّا تصعد أولى درجات السلم، فيما سارعت إلى الحمام، غسلت وجهي، تمضمضت ورتبت شعري على عجل، ثم سارعت بتنظيف سطح طاولة الصالة التي كانت مكتظة بمنفضة السجائر المليئة بالأعقاب ونوى التمر وعلب اللبن الفارغة والصحف المبعثرة. بعدها، ذهبت إلى الباب واقفاً بانتظارها حيث اقترب وقع خطواهّا من الوصول. كانت تلهث بسبب الصعود وكررت عليها جملة المجاملة الروتينية لكل اللاهثين بالصعود إلى شقتي، والتي تعلمتها من بيلار: هذه رياضة.. يقال إن صعود السلالم يقوي عضلة القلب.

مددتُ لها يدي مصافحاً ومعيناً لها على صعود آخر درجتين، فابتسمت وهي تقول:

- صباح الخير.. ثم أضافت: وماذا سأفعل بقلب قوي العضلات ما دام ليس لدي نية إرساله للمشاركة في الأولمبياد!.

ضحكنا معاً وقدتها إلى الدخول. كانت آثار التعب والسهر واضحة عليها. شعيرات الدم الحمراء خضبت بياض عينيها، ولاحظتُ أن شعرها طويل وجميل التصفيف. بشرة وجهها متعَبة ولامعة كأنها مدهونة بالزيت. رأيت ذلك حين مرت من تحت المصباح المعلق في الممر. وقدتها للجلوس في الصالة، فألقت نفسها ارتماءً وأطلقت زفرة قوية، أو كما يقال؛ تنفس الصُعداء. ومثل كل الذين دخلوا إلى بيتي، أيضاً، راحت تحدق بصور العراق التي تغطي الجدران، وقالت: هذه أول مرة أرى فيها بيتاً بهذا الشكل.. أهي صور من العراق؟.

قلت: نعم ألصقها بنية التخفيف من غربتي لكنها في الحقيقة تزيدها.

قالت إنها فكرة جميلة وفي وقت لاحق ترغب في أن تتفحصها صورة صورة لأنها تحب العراق ولا تعرف عنه الكثير. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً مما جعلها أكثر أنوثة في نظري، أنا الذي لم أر في سنواتي الطويلة هنا إلا نساء قليلات لا يرتدين البنطلون. وسألتها إن كانت تريد أن تأكل أو تشرب شيئاً، فقالت: لا شيء سوى قليل من الماء. جلبتُ لها كأساً وجلست قبالتها سائلاً إياها عن جرح كفها، فقالت: لابد أنه أحسن، ولكنه مازال يخزني، أحتاج إلى تغيير لفافته، هل لديك..؟. قلت: نعم، لدي يود ولفاف. ونهضتُ. فقالت: لا.. ليس الآن.. اجلس، جئت لأخبرك بما حدث وبضرورة أن تتحدث مع السيد نوح، أعتقد أنه الآن بحاجة إلى قريب يفهمه ويساعده.

- ماذا حدث؟.

- قبل ساعة، وفي نهاية السهرة، تخاصم وروسا، وذهبت هي غاضبة باكية إلى برشلونة.

- لماذا؟.

- لقـــد شرب السيد نوح في الأمس أكثر من اللازم حتى سكر، فـــزاد في مـــزاحه مـــع الزبائن والرقص مع الفتيات ومداعبتهن، وقبَّل بعـــضهن أحياناً، فكانت روسا تتمزق غيرة وتكبح غضبها حتى انتهاء الـــسهرة ثم بـــدأت المعـــركة بينهما.. وكانت إجاباته فظّة، فحملت حقيبـــتها وغادرت باكية تاركة إياه مترنحاً في سُكره. حاولت تهدئتها ولم أستطع، ثم قدتُ، مع إحدى زميلاتي، السيد نوح إلى بيته وتركناه هامـــداً على فراشه كجثة. نام بملابسه كما هو، وخلعتُ له حذائه ثم أغلقتُ المحل على فوضاه واتساخه وجئت إليك.

- وهل يحدث هذا دائماً؟.

- لا ليس بهذا الشكل.. فهو يشرب لكنه لا يفقد وعيه وسيطرته على نفسه.. بالأمس شرب كثيراً فسكر بشكل لم يحدث من قبل.. لا أعـــرف ماذا أفعل.. لذا فكرت بشخص آخر يعينني على الأمر، وعلى الـــرغم مـــن أن السيد نوح له معارف كثر، إلا أنني لاحظتُ بأنه هو وروســـا يكـــنان لك احتراماً ومودة خاصتين، ثم إنكَ من قريته وبلده وثقافـــته ولغـــته، لـــذا فكرت بأنك ستكون أفضل من يتحدث معه ويسمعه ويفهمه.. إنه صديقك على أية حال.. أليس كذلك؟.

أطـــرقتُ رأسي للحظات مفكراً بالأمر وبقرار الإجابة، تنفستُ بصوت مسموع، ثم نظرت إليها وقلت:

- إنه أبـــي.

الدهـــشة المفاجـــأة، ألقـــت بفاطمة مسندة ظهرها إلى الخلف، أوســـعَت عينـــيها، وتغـــيرت كل ملامح وجهها، فغَرت فاها الذي سارعَت إلى تغطيته بكفها اليمنى: صحيح؟!.

أكـــدتُ لهـــا الأمر دون تفاصيل أخرى، وقلت لها أن عليها أن تـــستريح، تنام، وكذلك لندعه هو الآخر ينام وبعد ساعات سنذهب

إلـــيه. قالـــت إن جسدها منهَك لكن ذهنها يقظ ولا تدري إن كان باستطاعتها أن تنام، لكنها بحاجة إلى الاغتسال وتبديل لفافة جرحها ثم الاتـــصال بـــشقيقتها لتطمئنها وإخبارها بعدم مجيئها اليوم إلى البيت. فقلـــت لها: نامي الآن قليلاً وبعدها سنرتب كل شيء. قالت: نصف ســـاعة ســـتكون كافية. قدتها إلى سريري في غرفة النوم وأخرجتُ لها إحدى بيجاماتي، لكنها أصرت أن تنام، هكذا، بثوبها.

أغلقـــتُ علـــيها الباب ونـــزلتُ أجلب خبزاً وجبناً وحليباً، ثم رحت أعد الإفطار لكلينا. جعلته هذه المرة أكثر ثراءً وتنوعاً مضيفاً إليه البـــيض والـــزيتون والمربى فليس من اللائق أن أقدم لها إفطاري اليومي التقلـــيدي: قهوة بالحليب وبسكويت وسجائر. نامت أكثر من ساعة وكـــنتُ أسمع شخيرها الواطئ كشخير طفل بدين هده اللعب أو يخنقه مخاطه.

فرشـــتُ علـــى طاولة الصالة الواطئة صفحات جرائد، كعادتي، ورحـــت أجلـــب الصحون أرتبها، ثم أعددت ماكنة القهوة، شغلتها، ودخلـــت إلى الحمّـــام أغتسل.. لأجد، بعد انتهائي وخروجي، فاطمة جالسة في الصالة. حييتها وكفاي مازالتا تديران المنشفة على رأسي.

- صباح الخير.. هل نمتِ جيداً؟.

قالـــت نعـــم، ثم أضـــافت متبسمة بخجل أنثوي: هل أزعجتكَ بشخيري؟.. فأنا أشخر حين أكون متعَبة.

- لا.. شـــخيرك بسيط جداً مقارنة بشخيري أنا المُدخن.. فهو يشبه زئير تراكتور غائص في الطين.

ضـــحكَت، وأشرتُ لها بالدخول إلى الحمّام، فيما دخلت أنا إلى غـــرفة النوم أستبدل ملابسي، ولاحظت بأنها قد رتبت فراشي بشكل أنـــيق لم أقـــم به أنا مطلقاً من قبل. فشعرت أن أحدنا (أنا والفراش)

يتمسم غامزاً للآخر بمغزى. أخرجت من أحد أدراج الدولاب ما لدي من لفائف طبية ويود. حملتهما إلى الصالة ورحت أجلب القهوة، ووضعت في المسجل شريطاً لفيروز التي أدمنتُ، كغيري، سماعها في كل صباح، وجلست أدخن منتظراً خروج فاطمة.

انفتح باب الحمّام وأطلت برأسها ونصف كتف عار من خلف إطاره، شعرها يتدلى يقطر مبللاً، أرعشني مشهده الذي ذكرني بعالية السابحة أو الغريقة، وقبل أن يستغرقني هذا المشهد قالت من فم سعيد:
- الله كم أحب فيروز!.. ثم سألت: هل لديك منشفة ثانية أم أنشّف بهذه؟.

نهضت قافزاً: عفواً.. نسيت، طبعاً عندي. وجلبت لها على عجل منشفة أخرى، تلقتها ذراعها العارية فائحة برائحة المرأة والصابون. شكراً. وابتسامة. وأغلقَت الباب. رفعتُ من صوت فيروز، وجلست أدخن سيجارة أخرى بانتظارها وقلبي يزداد طراوة كزبدة تذوب وسط صحن زيت دافئ.

أكملنا إفطارنا بعد أن سألتها خلاله: لم تتذوقي التمر؟. قالت: أنا لا أحبه إلا في شهر رمضان. أشعرني ذلك بنوع من الخيبة، وقلت: جربيه: إنه تمر عراقي. قالت: صحيح؟!. وتناولت واحدة على الفور. أنهت فيروز شريط أغنياتها، فيما رائحة جسد فاطمة الممتزجة بأريج الصابون تملأ المكان، وهي تقول ليَدي: شكراً لا أُدخن. رحت أسألها عن نفسها فوجدتها تسرد لي بثقة تحت تأثير استرخائها وشعورها بالراحة، فتتجلى لي حكايتها وشخصيتها تدريجياً مع تدرج زحف نور الصباح.

فاطمة من طنجة، تصغرني بأربعة أعوام، ومنذ أربعة أعوام تقيم في مدريد، لها أربعة أخوة (وتحب الرقم أربعة، إذا كان لهذا الأمر

أهمية!). أختاها الكبيرتان متزوجتان، وهي والصغرى هنا، أما شقيقهن الوحيد فقد غرق في مضيق جبل طارق أثناء مغامرة العبور إلى إسبانيا في قوارب الموت. لقد ترك دراسته الجامعية قبل أن يكملها مضطراً، بعد أن تم طرد الأب من عمله في مطعم دام أكثر من ثلاثين عاماً، حين توفي صاحب المطعم وحوّله أبناؤه إلى ملهى، استبدلوا معه كل طاقم العمال بشباب ومنحوا والدها قليلاً من المال واستغنوا عن خدماته فقد شاخ ودبت في بدنه الأمراض. حاول الأخ سد تكاليف عيش الأسرة وعلاج الأب عبر أعمال شتى كانت تُرهقه ولا تَفي، لذا قرر المغامرة التي غرق فيها. كان يحدثهم عن أوربا الحلم والمال الوفير الذي سيبعثه لهم. تركت فاطمة دراستها أيضاً أمام حسرة والديها وأمراض الأب. تنقلت هي الأخرى عاملة بين مصانع للأحذية، وللنسيج وورشة خياطة، ومع ذلك كانوا يضطرون للمبيت بلا عشاء في أغلب الليالي. لذا لم تتأخر بالموافقة على الزواج من مغربي في زنقتهم حين طلب يدها في إحدى زياراته لأهله قادماً من إقامته الطويلة في إسبانيا، فجاءت إلى هنا حاملة حلم أخيها الذي لم يتحقق. لكنها بعد شهرين ونصف، اكتشفت إدمان زوجها على الشرب وتسكعه. كان يضربها، ويصرف مالها الذي تجنيه من تنظيف بيوت الأغنياء، فانفصلت عنه، ثم جاء الطلاق. وراحت تبعث لأهلها ما توفره من مال ثم جلبت أختها الصغرى كي تؤانسها وكي تكمل حلم العائلة بأن يكمل أحدهم دراسته.

كنتُ أشعر في عمق نبرتها مسحة من ثبوت الثقة بالنفس وغلالة من الحزن الذي استطاعت فاطمة تقبُّله وهضمه بواقعية ترتكز على اتفاقها مع تكرار حكايتها وعاديتها، وتصل في ذلك إلى حد الرضى المتفهم.. بل وتحويله، عبر الاستحضار أثناء ممارسة الحياة، إلى نوع من

مصدر لاستمداد التَقَوّي ومن ثم الوصول إلى نوع من الشعور بالاعتزاز بالـذات. ثمـة شـيء ما، أجهله، في فاطمة المغربية يذكرني، أحياناً، بكولاله الكردية!.

ولا أدري كـيف قادنا الحديث مرة أخرى إلى أبـي فوجدتني أجـد مدخلاً مناسباً لأسألها عن معنى تقبُّلها لمداعباته، وتحديداً، لصفعه لهـا علـى مؤخـرتها..!، فقد كان هذا الأمر يعنيني إلى حد عميق. فـوجدتها، تـضحك، ترنوا بعينيها بعذوبة كمن يتذكر حادث عزيز، وراحـت تحـاول شـرح شعورها لي تجاه أبـي الذي تجد فيه أبوة تحـتاجها.. وتـبحث فيه عن صور من والدها؛ شرطه عليها في حفظ آيـات قرآنية، أوامره لها في العمل، ثقته الخاصة بها وتسليمها صندوق الحـسابات، إعطائه لها نسخ من مفاتيح المرقص وبيته، حاجته إليها في التـرجمة، فهمهما لبعضهما باعتبارهما من ثقافة واحدة وسط أناس من شتى الثقافات، استعانته بها على فهم الكثير من محيطه الجديد، سؤاله لها عـن أخـتها ووالـديها ومكافأتـه لها بشكل متكرر.. والصفعة يا فاطمـة؟!.. أسألك عن صفعه المتكرر لمؤخرتك؟.. آه.. حتى هذا يلذ لهـا، فذاك ما كان يفعله أبوها أيضاً حين كانت تأتي إليه صغيرة تُريه رسـومها أو تحمـل شـهاداتي باحها في المدرسة، يرفعها إلى ركبتيه، يحتضنها إلى صدره، يُقَبلها، يمنحها بعض الدراهم لتشتري ما تشاء، ثم ينـزلها بين ركبتيه ويصفعها بحنان على مؤخرتها قائلاً: أركضي إلى أمك، في المطبخ، وبشريها بنجاحك.

مثلما يحدث كثيراً، مع كثيرين، أن يتحسسا تآلفاً حميمياً بعد لقاء أو اثـنين، فيشعران وكأنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، حدث ذلـك بيني وبين فاطمة، وقد أشرنا إليه في حديثنا أثناء مسيرنا القصير باتجـاه المـرقص. وبالنـسبة لي، فهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها

بتخفف من عبء الإحساس بالغربة، وكان لاستعمالي العربية بالحديث أثـر كبير في ذلك. فاطمة أقرب إلى الأنثى التي أتصور أو التي تربيت على فهمها، ففيها شيء من الأخت والأمومة وتقبُّل الدور الممنوح أو المتاح في الحياة، في المحيط، في الزمان والمكان المعينين وأطر من مفاهيم تقليدية توحي بالوثوق والطمأنينة وقبول الأمر الواقع، ثم حساسية التكيف دون الكف عن هاجس التنظيم والتحسين. استعمالنا في كلامنا، بداهة، الكثير من الكلمات الدينية، يشعرنا بثقة أكبر وتقارب أكثر. فهي حين رأت سجادة صلاتي معلقة خلف باب الصالة، في البقعة الوحيدة الخالية من الصور، قبل أن نخرج، سألت وهي حتماً تعرف الإجابة: أأنتَ تصلي؟. قلت: نعم. فقالت: أنا كذلك قدر استطاعتي، والتزامي كامل فقط في شهر رمضان.. أنا أفَضِّل الأشخاص المؤمنين بوجود الله.

وصلنا، أخرجَت حزمة مفاتيح من حقيبتها، فتحت باب المرقص واندفعنا نازلين إلى داخله بعد أن أضاءت بعض أنواره الخافتة من زر صغير خلف صفحة الباب. ما إن نزلنا آخر درجة حتى أضاءت فاطمة الصالة بالضغط على زر قرب مدخل الحمّام فاشتعلت المصابيح الكبيرة كاشفة عن فوضى شبيهة بميدان معركة حقيقية منتهية لتوها. الأرضية مغطاة بالمناديل الورقية، أعقاب سجائر، ومخلفات السهرة، كراسي ساقطة، أقداح وقناني فارغة أو إلى منتصفها في كل الزوايا والاتجاهات، أعقاب سجائر، قشور ليمون وعظام حبات الزيتون، أعقاب سجائر، صحون ومنافض مليئة بأعقاب سجائر وعيدان تنظيف الأسنان، علب سجائر فارغة وبقايا سندويشات قُضمت إلى المنتصف، فتيت بطاطا، أعقاب سجائر وعطن النيكوتين يهيمن على المكان.. فقلت ذاهلاً: ما هذه المزبلة!؟.

قالت فاطمة: هذا شيء عادي تخلفه كل سهرة.

- وما العمل؟.

ابتسمت وهي تشمر عن ساعديها وتربط صدرية العمل على صدرها قائلة: سأقوم بتنظيفه الآن.

- ولكن هذا كثير عليكِ وحدك.. ثم أن كفكِ مجروحة!.

- هذه جراح بسيطة.. وسوف ترى كيف أعيد المكان إلى نظافته ونظامه خلال ساعة واحدة.

- هل أساعدكِ؟.

- لا.. فهذا عملي أنا وأعرف كيف سأنجزه.. اذهب أنت إلى السيد نوح.

- كم الساعة الآن؟.

- العاشرة والنصف.

وتوجهَت إلى حقيبتها، أخرجَت منها حزمة المفاتيح، مرة أخرى، وراحت تميزها لي عن بعضها.

- هذا مفتاح باب العمارة الخارجي، هي هنا التي في الزاوية على اليسار، وهذا مفتاح الشقة، في الطابق الثاني، حرف C يعني التي في المنتصف، بابها مقابل باب المصعد تماماً.

بقيتُ لبرهة.. كأني حائر بين رغبتي بالذهاب واستثمار الفرصة التي طالما انتظرتها للانفراد بأبي، وبين ترددي وخشيتي من هذا الانفراد.. ربما كانت رغبتي أن أبقى برفقة فاطمة أكبر؟.. وجدتها مازالت واقفة تستند على المكنسة وتنظر إليّ كأنها تنتظر انصرافي.. فانصرفت.

# - 10 -

وقفتُ أمام باب شقة أبي ترافقني حيرتي، دقات قلبي تتسارع ومعها أنفاسي، أحاول التنصت لما يحدث خلف الباب.. لا شيء غير الصمت.. فهل أقرع الجرس؟.، هل أنقر على الباب بأصابعي؟.. هل أنصرف متهرباً؟.. أم أفتح الباب مباشرة وأدخُل؟.. ربما لهذا الأمر الأخير نفسه قد أعطتني فاطمة المفتاح.. لكن كيف سأدخل بيتاً بلا سابق تنبيه و لم أفعل أمراً كهذا منذ مغادرتي لبيتنا القروي؟.. ولكن هذا هو بيت أبي أيضاً!؟.. طرقت على وجه الباب بأطراف ظاهر أصابعي طرقاً خفيفاً بالكاد أسمعه أنا نفسي.. ربما هو مجرد تبرير لأقول، فيما لو سُولت، بأنني طرقت دون أن أكون كاذباً.. انتظرتُ قليلاً.. ثم أولجت المفتاح، أدرته ببطء، ودفعت صفحة الباب بحذر وهدوء أبطأ.. كمن يفتح صندوقاً قديماً. دخلت بأقدام صامتة ورددتُ الباب بهدوء شبيه بالذي فتحته فيه.. لا شيء سوى الصمت الذي يتسيده شخير أبي في ركن ما.

الصالة ضعف صالة شقتي اتساعاً وفي جدارها المقابل للباب نافذة تطل على فناء ضيق بين جدران البنايات المجاورة. ثمة أربعة أبواب أخرى داخلية، أحدها مغلق أما الثلاثة المفتوحة فهي: المطبخ، الحمام وشخير أبي، إنها غرفة النوم حتماً. اقتربت منها، ورأيته ملقى على السرير على بطنه بملابس سهرة الأمس وبالجوربين. لم أر أبي أو أحداً من قبل في قريتي ينام على بطنه بهذا الشكل، وأذكر تلك المرة التي نهرني فيها جدي غاضباً حين رآني منبطحاً على بساط مَضافته بهذا

الشكل فصاح: قم، انهض وعدّل وضعك.. وإياك أن تنبطح مره أخرى على الأرض بهذا الشكل.. فهذه رقدة شيطانية.

ولا أتذكر من ذا الذي فسر لي الأمر بعدها بالقول: ذلك لأن الأرض هي أمنا ولا يجوز لنا الانبطاح عليها على هذا النحو.. كمن يضاجع زوجته.

عدت بخطواتي البطيئة الحذرة، حد التشنج. جلست على الكنبة التي تتصدر الصالة تحت النافذة المطلة على الفناء، ورحت أتفحص المكان في ضوء النهار المتدفق منها. على الطاولة الواطئة أمامي وجوار منفضة السجائر وبعض الصحف الألمانية كانت حزمة مفاتيح أبي ملقاة، عرفتها من خلال الميدالية العتيدة التي تجمعها، سلسلة قصيرة تنتهي برصاصة مفرغة، صارت مائلة من حمرتها النحاسية إلى الأصفر بحكم الملامسة. هي ذاتها التي ظل يحملها معه منذ الأيام الأولى اللاحقة على حادثة اصطدامنا بمحافظة تكريت، ظَهَرت مع ظهور تسميتنا بالقشامر.. إنها الرصاصة ذاتها التي بقيت في كف أبي ولم يُدخلها في مؤخرة الصبي الذي تحرش بإستبرق، فقد أنقذته دواب السوق حينها. ولا أدري.. كيف استطاع أبي تخبئتها والاستمرار معها، نفسها، بعد حملة التعذيب وبعد مرور الأعوام.. ثم كيف مررها عبر المطارات إلى هنا؟!.

على بقية الجدران بوسترات لمناظر طبيعية تشير الكلمات، التي تذيلها، إلى أنها مناظر ألمانية. بوسترات أخرى كبيرة لفتيات شبه عاريات بأوضاع إغراء تدعي النشوة..

والشفاه، كالعادة، على تلك الصيغة التي صرتُ أمقتها لتكرارها المبتذل، أي يكون الفم نصف المفتوح، بارتخاء فج على شكل دائرة تَدَّعي الاستعداد للتقبيل.. لا أدري من ذا الذي أدخل في أذهان النساء

هذا المشهد الساذج تعبيراً عن الإغراء!.. لقد صرت ألقي بنظري أولاً إلى شفاه النساء في صور الصحف والإعلانات والتقاويم، وما إن أجدها علـــى هذا النحو المستهلَك حتى تسقط أية دلالة للإغراء وأشعر بزيفها بالغ السذاجة، فأقلب الصفحة كنوع من رفض الموافقة على ضمي إلى قطيع المستهلكين المتقبلين للأمر.

شـــخير أبــــي مرتفع وفي الجهة المقابلة يرتفع ديكور خشبـــي يتوسطه التلفاز وتحتشد بقية رفوفه بالكتب وأشرطة الفيديو والموسيقى وآنـــية أخرى من الخزف والزجاج ودزينات كؤوس موحَّدة.. مشهد تقلـــيدي، هو الآخر، يتكرر في البيوت التقليدية. حيث تقف أيضاً في زوايـــا الرفوف الصور العائلية، وهنا بالطبع فهي لأبـــي مع روسا في أكثر من مكان أو مدينة عرفت منها برشلونة على شاطئ البحر وبغداد أمـــام نـــصب الحـــرية. تستند الصور بوقوفها على ظهور الكتب التي تتراصف جميعها، باستثناء القرآن الذي يمنح وجه غلافه، المطرز بكلمة (الكـــريم) الذهبـــية، للناظرين في أعلى الرفوف مستنداً على مجلدات تفاسيره.

واصـــلتُ التفحص على هذا النحو.. نحو نصف ساعة، نهضت خلالهـــا أتجـــول بخطوات مازالت مقيَّدة، ملقياً بنظرات على دواخل المطـــبخ، الحمَّام، بعض عناوين الكتب وأشرطة الأفلام، من النافذة إلى الفناء، أيضاً، ومن وسط الصالة إلى غرفة شخير أبـــي الذي كان ينوع إيقاعاته، بعضها يجفلني، فأحسبه يوشك على الاختناق.

خـــلال هـــذا الوقت انتظمت أنفاسي واستعادت دقات قلبـــي روتيـــنها، صـــرت أكثـــر تآلفاً مع المكان. لذا لم يبق لي إلا أن ابدأ مواجهتي مع أبـــي. وهكذا اقتربت منه بهدوء. وضعت كفي على أحد كتفيه برفق، فتوقف شخيره، وتوقفت أنا أيضاً قبل أن أردد مناداتي التي

لم أمارسها منذ أعوام طويلة.. لذا كنت كمن يغص بها.. كمن يتحسس الكلمات ويستعيد إيقاعها المُنتَزع من مكامن الروح المجهولة، ويشعر بفيزيائيتها حد اللمس المُدِر للدمع الخانق:

- أبي.. أبي.. يا أبي.

تململ، وانقلب على ظهره مهمهماً بثقل: - هاه.. نعم.

ثم فتح عينيه بصعوبة، ثم دهشة، وقال: - أوه.. سليم.

جلس على الفور فاركاً عينيه كطفل كسول ومحاولاً إخفاء وقع المفاجأة عليه بالقول:

- صباح الخير.. كم الساعة؟.

ونهض وهو يضيف: - إنها فاطمة بالتأكيد.. هي التي بعثتك.

وعقّب وهو يبحث عن فردتي نعله جوار السرير: - إنها طيبة.. وبنت حلال.

خرجنا إلى الصالة، شعره منفوش وبدت الشائبة من ذوائبه تحت المصبوغة. بحث عن شيء ما.. إنه يبحث عن سجائر. هز علبة كانت جوار التلفاز، فتحها، ثم عصرها بقبضته وألقاها على الأرضية:

- اللعنة.. إنها فارغة.

قلت: - أنا لدي سجائر.

- ما هي؟.

أخرجت علبتي من جيبي وأريته إياها فقال: - لا.. هذه خفيفة.. لا تنفعني.. هل أفطَرت؟.

وتوجه إلى الثلاجة، فتحها وأدخل رأسه فيها وقال: - نحتاج إلى حليب.

ثم عقب مازحاً: - لكن الأبقار الآن في المرعى.

وضحك مربتاً على كتفي بدلالة حميمة. شعرت عندها بأنه أقرب إلى أبـــي الـــذي عرفته في الماضي.. وكأن عبارته التي أطلقها بإيحاء واضح عن الأبقار علامة على المشترك بيننا هناك في قريتنا البعيدة.

قلت: - سأنــزل وأجلب الحليب والسجائر.. أي سجائر تريد؟.

أشــار إلى العلــبة المفعوصــة في الأرضية: - هذه.. أو فقط قل للــصينين، في المحــل المقابــل للمرقص، تعرفه؟.. قل لهم أريد سجائر وحلــيب وجــبن ألماني للسيد نوح وهم سيعرفون المطلوب، وأنا أثناء ذلك سأجهز القهوة وأستحم.. أوكي؟.. هاك خذ فلوس.

- لا.. لا داعي، هذا أمر بسيط.

وتجرأت على ملاطفته فأضفت: وأنت مدعو من قبلي للإفطار في بيتك.

ضحكنا بمودة تقربنا. وخرجت حاملاً بقايا ابتسامتي حتى مدخل المحل الصيني. وبالفعل: ما إن أخبرت البائعة الصينية بما طلبه السيد نوح حـــتى أتـــتني به على الفور. فعدت أحمله صاعداً إلى المطبخ، فيما كان أبـــي يترنم بأغنية ألمانية تحت الدش في الحمام. فابتسمت ورحت أعد الإفطار، مرتباً إياه على طاولة الصالة بعد أن أزحت عنها كومة الجرائد ومفرغاً للمنفضة، تاركاً حزمة مفاتيحه المشنوقة بالرصاصة على الحافة، في مكانها.

خـــرج أبـــــي من الحمام بقامته الهائلة وشعر صدره الذي طغى علــيه لـــون الرماد، لافاً منتصفه بمنشفة بيضاء عريضة وقال حين رأى المائدة جاهزة: - كُل إذا شئت.. سآتي حالاً.

- لا.. أنا أفطرت، هذا لك.. سأتناول معك فنجان قهوة فقط.

ودخل هو إلى غرفة نومه، ليخرُج منها بعد دقائق بملابس أخرى نظــيفة أنــيقة، وقد مشط شعره رابطاً إياه إلى الخلف على شكل ذيل

حـــصان، وتفوح منه رائحة عطر نفاذة.. أعرف أنه يحب الإكثار من التعطـــر حد السكب منه على جسده سكباً. عادة قديمة لم يتخل عنها أسوة بجدي الذي كان يردد دائماً بأن النبـــي كان يحب العطر والنساء والصلاة.

أكـــل أبـــــي بشهية وشراهة، فيما كنت أنا حائراً بشأن كيفية الـــبدء بالحديث معه.. لذا كان هو، في البداية، أكثر من يوجه الأسئلة خـــلال مضغه للقماته. سألني عن نفسي، وصحتي، وأحوالي وعملي.. وقـــال إنه لم يكن يعرف بأني هنا في إسبانيا ولا أحد يعرف، من أهل القرية، عني شيئاً.. لكنه هو شخصياً قد كان في قرارته يشعر بالطمأنينة عليّ وبأنني بخير، في مكان آمن ما. فكان يُطمئن أمي كلما بكت شوقاً إليّ ويختـــرع لها الحكايات والإشاعات عن نعيم عيش الهاربين خارج العراق. يقوم بتهدئتها وتواصل هي دعاءها لي في صلواتها.

بـــدأتُ عندها بالدخول في أسئلتي عن أمي، فقال: إنها كما هي؛ امـــرأة عظـــيمة تكظم حزنها وتواصل كدحها وهي الآن سعيدة بتربية أحفادها. تعيش معها إستبرق في بيتنا، إستبرق تزوجت من إبراهيم ابن خالك، وكانت تريد أن تسمي ولدها الأكبر صراط.. لكنه مانع، ومعه حـــق، وأنت تعرف السبب.. فضحكنا وعرفت لأول مرة بأن أبـــي يعـــرف حكايـــة حب إستبرق لصراط.. وواصل: وهكذا لجأت مثل غيرهـــا مـــن أهلنا إلى القرآن في التسمية. لقد تحسنت صحتها كثيراً، لـــديها الآن ثلاثة أطفال وتركتها حاملاً بالرابع.. لقد أصبحت أكثر بدانـــة وليست تلك النحيلة (القصبة) التي عرفتها أنت.. بالمناسبة، هي تُعلـــق صورة كبيرة لك في صدر حجرتها وترفع إليها أطفالها كل يوم قائلة: هذا خالكم سليم.. سيعود حالباً لكم الكثير من الهدايا. فينطقون باسمك قبل أن ينطقوا اسم والدهم.

انتهى أبي من تناول إفطاره، أراح ظهره على مسند الكنبة جواري وبدأ التدخين بتلذذ، فوجدته أكثر تركيزاً وحيوية واستعداداً للكلام، لذا رحت أجاريه بتدخيني وتصاعد أسئلتي وجرأها.. سألته عن كل شيء تقريباً باستثناء سؤالين أساسيين فقط لم أجرؤ على البوح بهما: هل هو الذي قتل جدي في فجر تلك الليلة أم أنه قد انفجر بوجهه على تلك الصورة التي رأيتها، قبل مغادرتي، بعد أن تأكد من موته؟.. من أين له هذا الشغف بالنساء.. وكيف يمارس الحب مع روسا بحيث تحبه وتغار عليه إلى هذا الحد.. وهو الذي عطلوا ذكره وخصيتيه في حادثة التعذيب الكهربائي تلك؟.

.. وهكذا كنتُ أدور حول هذين السؤالين كفراشة حائمة حول نار وهي تحاذر الاحتراق.. أدور ضمن الأسئلة التفصيلية الأخرى عن القرية والأهل والحال هناك، فأخبرني بإسهاب وبتحليل أحياناً، لقد طال حديثنا ودخاننا لأكثر من ثلاث ساعات كان أبي خلالها، وحين يشتد به السرد ينهض منفعلاً، يدور في الصالة محركاً ذراعيه، ضاماً قبضتيه وصاكاً على عقب السيجارة بين أسنانه أحياناً، فبدا كمن يمثل مشهداً مسرحياً عصبياً. وأعرف أنني عاجز هنا عن تدوين كل الذي قيل، ووصف تفاصيل حركاته وسكناته، فالدهشة، مما قال، كانت تستولي عليّ بالكامل.. لذا سأوجز مما دار بما أخبرني به مبتدئاً من اليوم الذي رحلت فيه أنا عن القرية، وهو اليوم نفسه الذي رحل فيه جدي عن الدنيا. لقد تغير كل شيء يا سليم.. تغير تماماً.

## - 11 -

قال أبـــي:

دفـــنَت القرية جثث أبنائها واستسلمت لأوامر الحكومة وضَغْط منظومـــتها لتتحول بتدرج سريع إلى قرية عادية ككل القرى العراقية الأخـــرى. وتم الاكـــتفاء بدفن جدي في رأس أعلى مرتفع في المقبرة، ووضـــع رايـــات خـــضراء على ضريحه وجرار مليئة بالملح يلعق منها المتـــبركون كلمـــا زاروه. ويقص المرضى شرائطاً من رايات قبره كي يعلقـــوها في رقابهم أو سواعدهم كأحجية مباركة بعد أن تم الاكتفاء بمكافـــأة الجـــد باعتباره رجلاً مباركاً ومن أولياء الله الصالحين. وعاد تحسير العلاقات بقرية الصبح بشكل تقليدي، وكف أهلها عن التغامز بلقـــب القـــشامر لا احتراماً وإنما خشية من الحكومة التي فرضت اسم (الفـــارس) ودســـت عـــيونها وآذانها في كل ركن.. على ضفتي النهر وجانبـــي الجـــبل، في اليابـــسة والماء والهواء والطين. أجواء الحرب هيمـــنت علـــى الـــبلاد بكاملها والتلفاز والمدارس والمنظمات الحزبية والـــشرطة كانت كلها أدوات الحكومة في التعبئة والسيطرة.. الحديد والنار.. الخوف والكبت والاستسلام بانتظار أمل بعيد بخلاص غامض يكاد ينقطع خيط رجائه.

وقال أيضاً: لقد راح الناس يتحللون تدريجياً من هيمنة ملا مطلق بعد رحيله، ويندرجون مستسلمين تحت هيمنة سلطة الحكومة الشرسة. انفـــضّت مجـــالس دروس الدين في المسجد واجتماعات حل المشاكل الاجتماعـــية الـــتي نقلوها إلى محاكم المدن. وقل المصلون و لم يعد أحد

يتحدث بالثأر للكرامة الذي عاهدوا الملا عليه.. و لم أفعل أنا شيئاً تجاه ذلك.. لكنني بقيت في داخلي متمسكاً بعهدي الذي قطعته على نفسي أمـــام أبـــي وأقسمت عليه.. وحدي أنا من كان يواصل عيشه تحت سلطة الحاج مطلق ويحرص على مواصلة طاعتها مهما بلغ الثمن.. لقد كان أبـــي بالنسبة لي.. يا سليم.. كل شيء.. كل شيء.. إنه القيمة والـــسُلطة المُطلقـــة في الحياة الدنيا والآخرة، وقد رأيتَ أنت بنفسك علاقـــتي به، لقد كان بالنسبة لي بمثابة المقدس، التاريخ، الدين، القيم، المطلق والحقيقة الوجودية الوحيدة أو مصدرها.. كان بالنسبة لي القوي العـــارف واليقيني الذي لا يُفترض معصيته.. لقد تربيت على ذلك منذ وعيت.. محفوراً في وجداني وتركيبتي بأن رضا الله من رضا الوالدين.. لـــذا كـــان رضاه، عندي، هو غايتي الكبرى.. بل إن أبـــي قد كان بالنـــسبة لي هـــو الخلـــيفة الوحيد لله في الأرض.. وأعترف لك الآن وحـــدك، ولأول مرة في حياتي.. بأنني كنت غالباً ما أرى الرب مجسداً فـــيه.. كـــان – هو – بمثابة الإله المباشر بالنسبة لي، وتربيته هي التي رسَّخَت ذلك.. لم أجرؤ على النظر في عينيه يوماً على الإطلاق..

شـــيء واحـــد فقـــط كـــان يحـــول دون قناعتي تلك بألوهيته ويكسرها.. ألا وهو النَدم.. نعم.. لأن الندم صفة بشرية أما الإله فلا يـــندم علـــى شيء يفعله لأنه السابق واللاحق بمعرفته وعلمه وحكمته وإرادته.. أقول ذلك (الندم) وأعني جدك.. أبـــي.. فقد أخبرتني أمي ذات ظهيرة في موسم حصاد بعيد، أن الشيء الوحيد الذي فعله أبـــي ونـــدم علـــيه وظـــل يندم على فعله إياه طوال حياته ويبكيه أحياناً في حجرها في لحظات ضعفه.. هو أنه قد قطع لزوجته الأولى عقلة إصبعها السبابة حين أشهرته في وجهه مهدِّدَة.. الحادث يعرفه الجميع ويضربون به الأمثال.. لكن الذي لا يعرفه أحد سوى أمي وأنا وأنت الآن.. هو

أن أبـــي قد ندم على ذلك وظلت ذكرى هذا الحادث تعذبه.. فيما نفعستني أنــا بتجريده من صفة الإله.. من هنا أيضاً حرصت على أن أتعامل معكم أنتم أبنائي بشكل مختلف، شكاً أو يقيناً في عدم مقدرتي علــى إتقـان التربية القصوى كأبــي، ومحاذراً، في الوقت نفسه، من فــرض صـــورة الأب الإله عليكم كما حدث معي.. لذا كنت محايداً وبـــشرياً وصديقاً كما لاحظت.. كنت أمارس معكم شطري الآخر، أناي الأخرى، الحياتية العادية والبشرية.. فقد كنتُ وما زلت يا سليم، منقـــسماً إلى اثنين في داخلي.. واحد مقتنع مطيع موقن بالمقدس الذي يمثله أبـــي ومرتبط بالعمل للآخرة، وآخر مرتاب متمرد شكاك بشري ومـــرتبط بالدنـــيا، يحـــب الضحك والنساء والغناء والشعر والتمرد والخطيـــئة.. كنت أمارس الأول في القرية بحضور أبـــي، والآخر هناك في كـــركوك، في العمل، مع الأجانب والألمان منهم تحديداً. أما معكم فقـــد حرصـــت على الحيادية متحاشياً عكس صراع داخلي الشرس عليكم..

جـــدك رجـــل عظيم يا سليم، لكنه ربما وِلد في غير عصره، إنني أحبه بشكل كبير.. وأود لو أجد خلاصاً من هيمنته علي إلا بالوفاء له بالحـــذافير، وفي الوقت نفسه، ثمة نصفي الآخر الذي لابد أنك لاحظته هـــنا واســـتهجنته فيّ.. إنني أُطلقُ له العنان وأسوق له التبريرات.. يا ســـليم.. أحـــرره من سجنه الذي طال، تاركاً له حرية الانعتاق حتى يـــستفرغ كـــل مكبوته أو أرى إلى أين يصل.. ولكن لا تظن أبداً أن نصفي الأول قد انتهى، أو أنه قد كف عن وظيفته بالمراقبة والتأنيب.. لكـــنني كمـــن يمنحه إجازة أو استراحة بعد أن مارس وجوده طويلاً وســـيظل يمارسه.. بل إنني أجده أحياناً هو الذي يواصل هيمنته، وهو ذاتـــه الـــذي يستخدم الآخر بهذا الشكل لأغراضه.. فهو الذي دفعني

للمغامرة المصيرية التي أوصلتني إلى هنا ممتطياً الآخر المقموع ويُسيّره من أجل تنفيذ التزامه، عهده، قَسَمه أمام جدك العظيم بالثأر.. لا أدري إذا مـــا كـــنتُ قد عبرت جيداً عن هذا المتشابك في نفسي.. أو أنني قد أرضـــيتك بإجابتي وتفسيري هذا، أم أنني قد خيبت أملك.. ولا أدري فيما إذا كنت أباً صالحاً لك، أو الذي تريد.. فأبـــي الذي شغلني حتى عـــن إرضـــاء نفسي هو ذاته الذي شغلني عن التفكير بإرضاء غيري.. حـــسناً سأحاول الآن أن أرسم لك الأمر وفق حركته على الواقع عبر الحكاية التي أوصلتني إلى هنا.. أو بالأحرى حكاية وصولي إلى هنا.

بعـــد غياب (لم يقل: موته أو مقتله) جدك كنتُ في أشد حالات صراعي مع نفسي، ووحدها أمك التي كانت تدرك هذا الألم.. لكنها وكمـــا تعرف ظلت هي كما هي عظيمة تمارس أمومتها على الجميع.. كـــنتُ أذهب إلى قبر أبـــي، أبكيه هناك، أتلو له القرآن كي أطمئنه علـــى أنني مازلت أحفظه كاملاً كما أراد، أناجيه أتحدث معه، أسأله وأشعر بأنه يجيبني، وأؤكد له عهدي معه والتزامي بما يريد مني، وخاصة قـــسمي على تنفيذ الثأر.. وهل تُصَدق بأنني لم أجرؤ أيضاً على النظر إلى شـــاهدة الـــرأس وإنما كنت أمسحها بكفي وأقبل الكف.. وحين أغادره كنت أسمع صوته يناديني: اسمع يا نوح. يردد قولته الشهيرة، ويردد الجـــبل صـــداها: إذا نـــبح عليك الكلب فلا تنبح عليه ولكن إذا عضك فعضه.. فعضّه.. عضّه.. عضّه.. ضّه.. ضّه.. هـــ.. هـــ.. هههههه..

تأخرتُ عن عملي في كركوك لأكثر من شهرين، ثم ذهبت بنِيّة تقـــديم اســـتقالتي فوجدتهم قد فصلوني لطول غيابـــي وعيّنوا غيري.. منحوني ما تبقى لي من مال مستحَق وعوضوني بمبلغ جيد. فذهبت إلى صـــديقي الكردي كاكه آزاد، وهو صاحب ثروة كبيرة وحزن أكبر، تعـــززت علاقـــتي به طوال أعوام عملي هناك، حيث كنت أذهب إلى

مطعمـــه وأستودعه أغراضي وأسراري، وكان كثيراً ما يصطحبني إلى بيـــته الذي يعيش فيه وحيداً ونسهر هناك أو أبيت عنده، ويوصلني إلى العمل بسيارته صباحاً.. ولآزاد حكايته الطويلة المُرّة أيضاً، موجزها: أن الحكـــومة قـــد قتلت عائلته ودمرت قريته التي وجدها حطاماً.. خراباً حـــين عـــاد من إحدى رحلات التهريب التي كان يقوم بها إلى إيران وتركيا. يهرب البضائع والأشخاص.. فأقسَم هو الآخر على أن ينتقم. غيّر بطاقته واستقر في كركوك بعد أن فتح هناك مطعماً فخماً، يستطلع منه الأمور ويتقرب إلى رجال السلطة، يستدرجهم ويستدر المعلومات مـــنهم وعـــنهم لنفـــسه، كما يوصلها إلى المتمردين في الجبال ويدبر مؤامراته.. كنت أحدثه عن كل شيء وتعززت صداقتنا حد المؤاخاة.. فتعاهدنا ذات فجر في محراب مسجد على الأخوّة بالقسم على القرآن، ومنح كل منا شعرة من شاربه لأخيه.. ولا أنكر أنني قد كنت في ذلك أقلد أبـــي أيضاً باتخاذه للشيخ عبدالشافي الكردي أخاً له.. تتذكره؟.. الذي ذهبنا إلى بيته لعلاج إستبرق.

لقد علمني أخي آزاد الكثير.. وإذا كان جدك قد زق في دمي قيم الكـــرامة والـــرجولة وأخلاقيات بعينها، فإن آزاد قد صبها في عظامي كالأسمـــنت صباً، وعلمني حرفية ممارستها بقلب ثابت.. علمني صلابة العـــناد، وكان يهدي كل عملية يقوم بها إلى روح أحد أفراد عائلته، وعـــند الانـــتهاء يعاود بالتسلسل إهداءهم عمليات أخرى.. وهكذا. تعلمـــتُ مـــنه أيـــضاً، لبس الأقنعة وممارسة الأدوار المتباينة وتجسيد الشخـــصيات المختلفة حد التطابق.. وحين أخبرته بعهدي مع أبـــي وقـــسَمي على أن أُدخل هذه الرصاصة المتبقية - أخذ ميدالية مفاتيحه وهز الرصاصة في قبضته - في مؤخرة ذلك الوقح الذي تسبب بكل ما حـــدث. ربـــت آزاد على ركبتي وقال: أحسدك.. لأنك تعرف وجه

عـــدوك، وأمـــرك أسهل.. فلستَ مثلي أنا الذي أحارب عدواً هائلاً، أخطبوطـيـاً، لا وجه له.. رجال السلطة والحزب والجيش وأعوانهم.. اطمئن فسوف تبر بقسمك وسوف تثأر أيضاً لابنك المقتول في حربهم ولبقـــية أبـــناء قريتك واحداً واحداً. تمنيت لحظتها لو أن أبـــي كان يسمعنا.. فبكيت وتعانقنا.

إثـــرها قررنا الانتقال إلى بغداد. باع هو مطعمه في كركوك وفتحـــنا معـــاً مطعماً فخماً بين شارعي السعدون وأبـــي نؤاس. عـــندها قلت لأمك بأنني راحل لأبر بقسمي وتواهبنا؛ قلت لها: أنا راض عنكِ. وقالت: إنني راضية عنكَ. فهي تعرف ما يعنيه القَسم على القرآن، وتعرف جيداً ما يعنيه لي أبـــي، الذي يعني لها القيمة والقمـــة ذاتهـــا. قلت لها إنني لا أدري كم سأغيب ولا أعرف أين ســـأكون ولا إلى أين سأتجه ولا أدري فيما إذا كنت خلال غيبتي سأعاشر أو أتزوج نساء أخريات، أو أنني سأموت. فإذا أرادت أن أطلقهـــا ســـأفعل أو فلتسامحني عما قد أفعله أو أضطر لفعله أو ما ســـيحدث معي.. بكت، بالطبع، وقالت: افعل ما تشاء.. ولا أريد الطلاق منك.. فكونك زوجي ووالد أولادي هو أمر يشرفني. أنت تـــاج رأســـي وأريـــدك في الآخرة زوجاً أيضاً. ظلت قوية القناعة وتفهمتي.. بل منحتني بتشجيعاتها القوة والعزم واعدة إياي على أن تحـــل محلي في إدارة البيت والعائلة والدعاء لي في صلواتها.. مقابل ذلـــك رجتني أن لا أدَّخر وسعاً بالسؤال والبحث عنك، فوعدتها.. وتوادعنا. قدمَت لي ذهبها، فقلت لها لدي الوفير من المال ومنحتها مـــنه شيئاً ثم غادرت، مثلك، ذات فجر بعيد و لم أعاود اتصالي بها حتى هذه اللحظة.. بل ودون أن أهتم بوعدي لها بالسؤال والبحث عنك.. فلم يكن ذلك ليشغلني.

في بغداد صار مطعمنا مفضلاً للكثيرين من المسؤولين والمتنفذين والأغنياء، كنا نغريهم بتعاملنا وكرمنا وتزلفنا فنكسب صحبتهم وتيسير فسقهم، فعرفنا عنهم الكثير، وفي الوقت نفسه، كلنا لهم العديد من الطعنات المُحكمة التدبير. جمعنا المزيد من المعلومات الدقيقة عنهم وأوصلها آزاد إلى المتمردين والمعارضين. وعرفنا أن ذلك الصبي الذي أبحث عنه قد تم تعيينه ملحقاً ما في السفارة العراقية في إسبانيا. وهكذا رحنا نبحث عن سبيل يوصلني إليه.. إلى أن حدث وأن جاء مسؤولون من وزارة الإعلام بوفد سياحي إسباني للعشاء في مطعمنا، فتعرفتُ على روسا.. وهكذا تم الباقي.. لحظة.. يا سليم.. لا تفكر بأنني قد استخدمت روسا وخدعتها، وإن كنتُ في حقيقتي.. لم أكن لأتردد في فعل ذلك. فقد ارتكبتُ برفقة أخي آزاد ما هو أدهى.. لكن الذي حدث هو التوافق بين غايتي وبين عاطفتي، فقد أحببتها فعلاً وهي قد أحبتني.. وهي المرأة الوحيدة التي أحببتها واخترتها بنفسي لنفسي. فكما تعلم أن أمك قد اختارها لي جدك وكان لقائي الأول بها في ليلة عرسنا.. ومحبتي لأمك قوية ولكنها ليست الحب المعروف بين امرأة ورجل.. كيف أشرح لك؟.. يعني كنا زوجين ناجحين جداً لكننا لم نكن حبيبين عاشقين.. أما روسا فقد عشقتها واخترتها بمحض إرادتي أنا. ولمة أشياء كثيرة تجمعنا.. وهكذا هي التي قامت بكل إجراءات وصولي إلى هنا، تحدثَت مع السفارة والوزارة الإسبانيتين، ووقّعت على الوثائق والضمانات المطلوبة، ودفعت أجور كل ذلك بما فيها الرحلة إلى هنا.

أقمنا في بادئ الأمر في برشلونة ثم أقنعتها بالمجيء إلى مدريد وإقامة هذا المشروع المشترك.. لكنها لا تعرف شيئاً عن نيتي الأخرى، التي قطعتُ في الوصول إليها شوطاً كبيراً، فقد جمعت المعلومات الوافية

والدقيقة عن مواعيد الدخول والخروج والبيت والأماكن المفضلة لهذا الحيوان. وكسبت ثقة شابين قويين محترفين من عصابة كولمبية كي يعينوني. أصبحا مهيئين لمفاتحتهما في أي وقت أشاء، وهكذا فقد أصبحَت مهمة تنفيذ غايتي والبر بقَسمي لا تتعدى كونها مسألة وقت قليل، واختيار للمكان وللّحظة المناسبين.. ها.. ما رأيك؟.

## - 12 -

بالتأكـــيد لم يكن لي رأي في تلك اللحظة وأنا واقع تحت سطوة المفاجأة، وأبـــي الذي لاحظ دهشتي بوضوح، لم يصر على سماع رأي فوري، لذا فهو لم يمانع حين دعوته للخروج وغيرت الموضوع متظاهراً بأولـــوية الـــتفكير بحـــل لحَرد روسا، فقال: اسبقني أنت إلى المرقص، انتظرني هناك، فيما سأتصل أنا بها الآن ونرى.

وجدت الباب الخارجي للمرقص مفتوحاً إلى منتصفه. طللتُ برأســـي وناديت فاطمة فجاءني صوتها أن: ادخل. فدخلت دون أن أغـــير من وضع الباب. وما إن نـــزلت ورأيت حتى أخذتني دهشة أخرى، من نوع آخر، خفّفَت من مرارة الدهشة السابقة مع أبـــي. لقد وجدت المكان نظيفاً ومرتباً كأن فريقاً متخصصاً قد انتهى لتوه مـــن تركيب الديكور، وبالفعل كانت فاطمة قد انتهت لتوها من تـــرتيب كـــل شيء حيث وجدتها تضع اللمسة الأخيرة وهي ترش مُعطـــر الجو حائمة تَبُخ أريجه بين الأركان مبتسمة وتسأل: ها.. ما رأيك؟.

ولهـــا، بالطبع، أستطيع إعطاء الرأي فوراً: مُدهش.. كيف فعلتِ كل ذلك؟.. أنتِ بطَلة!.

فندت ابتسامتها عن ضحكة راضية وهي تدخل خلف دكة البار وتسألني فيما لو كنت أرغب بتناول شيء، قلت لها: - لا، فأنا بانتظار نـــزول أبـــي.

- كيف وجدته؟.

قلت (جيد) وأنا أسارع لتغيير مسار الحديث إلى أي شيء آخر. فسألتها: كيف صارت يدكِ؟.

- إنها تمام.. قلتُ لك، إنها مجرد جرح بسيطة.. ليت كل جراحنا كهذه.

ثم رحت أسألها فيما إذا كانت ستذهب إلى بيتها؟ هل ستعمل اليوم؟.. وحديث عادي على هذا النحو قطَعه، بعد قليل، صوت إزاحة الباب ودخول أبي بحيوية وابتهاج منادياً باحتفالية وفاتحاً ذراعيه كممثل مسرحي.

- هاي.. فطومة.. فاي.. صباح الخير يا حُبي.

- أهلاً يا سيد نوح.. صباح النور.. كيف حالك أنت؟.

- أنا بخير كالحصان كما ترينني، سنذهب أنا وسليم لتناول الغداء فهل تحبين أن تأتي معنا؟.

- لا.. شكراً، عليّ أن أذهب إلى البيت، فأنا أحتاج إلى مزيد من النوم وهذه الليلة أمامنا عمل كثير أيضاً.

- اسمعي.. إذا شئت ألا تأتين فبإمكانك ذلك، فقط أخبريني بالهاتف لأتدبر الأمر، على الرغم من أنني بحاجة لوجودك الليلة أكثر، ولكنكِ قد بذلتِ في الأمس واليوم جهداً كبيراً. تستحقين عليه المزيد من الاستراحة.

- لا تهتم يا سيد نوح.. سأجيء بالتأكيد.

- حسناً.. إذاً سأمنحكِ، كمكافأة، يوم الأربعاء أيضاً استراحة إضافة إلى يومي الاثنين والثلاثاء المعتادين.

وربت أبي على كتفي قائلاً: - إذاً.. هيا بنا يا سليم.. وأنتِ اذهبي الآن يا فاطمة.. نراكِ هذه الليلة، وبإمكانكِ الوصول متأخرة، إذا شئتِ، أي بعد الثانية عشرة عندما تبدأ السهرة.. إلى اللقاء.

خرجنا، فقادني إلى محل الصينيين ليشتري علبة دخان أخرى. هناك دخل باحتفالية أيضاً، وتمازح مع المرأة البائعة مردداً بضع كلمات بالصينية فهمت أنها التحية وكلمتين أخريين ربما بذيئتين لأن المرأة ضحكت وهي تردد رادة عليه بالإسبانية: - لا.. لا.. أنتَ.. أنتَ.

خرجنا بعدها وقادني من شارع ضيق إلى آخر، من زقاق إلى آخر، وصولاً إلى مطعم إسباني تقليدي تشهد واجهته على قدمه، تفوح منه رائحة الأخشاب العتيقة حال الدخول إليه.. وبينما كان هادئاً خلال مسيرنا، ممتدحاً لطف الجو، مثنياً على فاطمة وطيبة الصينيين بعبارات عادية ليست أكثر من محاولة لإشغال الصمت، وملقياً بقطع نقدية عند رأس متسكع نائم في إحدى الزوايا قائلاً: مسكين مريض بالإيدز. وجدته يعاود ممارسة احتفاليته حال الدخول إلى المطعم صائحاً بالنادل هناك ومنادياً إياه باسمه (خوسيه) الذي راح وصاحب آخر له يردان باحتفالية حميمة موازية. ثم أشار لي بالجلوس على طاولة في أقصى زوايا صالة المطعم، مجاورة لنافذة تطل على الزقاق، فيما توقف هو معهم شارحاً لهم طلبات الغداء بمفردات إسبانية مرتبكة اللفظ والترابط مستعيناً بالتأشير بأصابعه على قائمة الطعام أو على نماذج من الأطعمة المعروضة ذاتها.

وهناك، في الزاوية المضاءة بنور النافذة النهاري، حيث كانت الساعة المواجهة تشير إلى قرب الرابعة عصراً. تناولنا غداءنا، وشرابنا، ودخاننا وأحاديثنا على مهل وروية. عاودنا استكمال تفاصيل ما تناولناه في حديثنا السابق وترميم العديد من المشاهد.. وأعرب عن رغبته الجامحة بالاتصال بآزاد لإخباره بأنه قد وجدني، قال: - هذا سيفرحه جداً. ثم عقّب: لكنني لا أستطيع فعل ذلك.. لأننا قد اتفقنا على ألا أتصل به أبداً إلا بعد أن أنفذ غايتي، وعندها سأتصل به دون

أن أشير؛ لا من بعيد ولا من قريب إلى ما فعلته.. فمجرد الاتصال بحد ذاته سيعني أنني قد نفذت المهمة.. وعندها نتحدث عن الأمور العادية الأخرى والأحوال والسلامات.. هل تعلم.. لقد اتفقنا أيضاً على أن نذهب للحج معاً حال الخلاص من نظام الطاغية وعندها نتطهر من ذنوبنا ونتوب إلى الله ونحاول الاستقامة.. لقد حاولتُ إقناع أخي آزاد لأكثر من مرة أن يتزوج ويبني عائلة جديدة، وهو متمكن من ذلك صحياً ومادياً، ولكنه ظل يرفض قائلاً بأنه قد قطع العهد على نفسه بأن لا يتزوج ولا ينجب إلا بعد نهاية الطاغية، فهو لا يريد أن يجلب أبناءً آخرين سيعانون القهر بوجود الدكتاتور أو برؤية خلقته.

عندها أخبرت أبي بما اسمعه وأقرأه من الأخبار عن نية الولايات المتحدة الأمريكية بتأليف تحالف ومهاجمة العراق إذا لم يسمح بالتفتيش ونزع أسلحة الدمار الشامل. فقال: أية أسلحة دمار شامل!.. وهل هناك ما هو أكثر دماراً من الدكتاتور نفسه الذي قتل وشرد ملايين، فلماذا لا ينتزعونه ويخلصوننا!؟. تجادلنا بعدها سياسياً، أنا أرفض مهاجمة العراق تحت أية ذريعة وهو يقول أن الخلاص من الدكتاتور أمر يستحق دفع أبهظ الأثمان. قلت له - متعمداً - أن ألمانيا، مثلاً، ترفض المشاركة في تحالف كهذا، ففاجأني جوابه بأن: طبعاً.. الألمان شعب عظيم، متحضر يحترم القوانين، وأمر قذر كالدكتاتور يحتاج إلى ند مثله كرئيس أمريكا مثلاً.. هم وضعوه وهم جديرون بخلعه. بعدها سنعرف كيف نواجههم، لأن التصدي للص غريب أهون من التصدي للص البيت.

لم يكشف لي الحوار السياسي وجهاً آخر لأبي فحسب، وإنما وجهاً لطبيعة مرارة الحال هناك في العراق ونفاد الاصطبار على أمل الخلاص.. الحديث حتى هذه النقطة قد كشف لي عن تمسك أبي

بشخصيته الأخرى، الثأر، والعودة إلى الالتزام الديني.. وهنا سعيت لاستحضار الجانب الآخر منه كي أرى حضورهما معاً، أو على الأقل لأتمكن من تحسس مدى قوة أحدهما قياساً إلى الآخر.. فسألته إذا كان قد تكلم مع روسا في الهاتف، وبماذا أجابته؟.. هبط حماس صوته قليلاً وأشعل سيجارة أخرى ثم قال إنها غاضبة منه كثيراً، و لم يستطع أن يفهم منها غير الرفض، لأنه لم يستطع أن يسمع كل كلماتها، لأنها كانت تنتحب وتنشج باكية في الهاتف وتشتمه.. ثم علق ممعناً في تذوق الكلمات التي ينطق بها: تبدو وكأنها ثور جريح، من وجهة تعبير إسبانية،.. أو وكأنها لبوة جريحة، من وجهة تعبير عراقية،.. وهي كذلك.. إنني أفهمها.. وأعذرها. ثم صمت للحظات وراح يحدق من النافذة. فسألته عما يفكر بفعله.. تنهد وعدل من جلسته واضعاً كفيه على الطاولة ثم ناقلاً نظراته للتفرس في وجهي بجدية ومباشرة وقال: لستُ راغباً بأخذك من حياتك الخاصة وجرك إلى شؤوني.. لكنني بحاجة إليك.. إلى مساعدتك.. فهل تستطيع؟.

أوقفت أنا الآخر انثيال استرخائي وانتصبت في جلستي يقظاً ومتسائلاً.. فأضاف: روسا غاضبة مني جداً.. ومعها حق في ذلك.. إنني أفهمها.. لكنني متأكد أيضاً من حبها لي، والمرأة العاشقة هي دائماً على استعداد للعفو.. بل إنها تنتظره وتريده.. إلا أنها تنتظر، في الوقت نفسه، طريقة مبتكرة أو خاصة بالاعتذار منها؛ تُشعرها بثمن استحقاق عفوها.. من ذلك طبعاً الهدايا والورد والكلمات الخاصة، لكن كلما كانت المشكلة مختلفة فيُفترض البحث عن طريقة مختلفة تناسبها بالاعتذار، وعليه فأنا أفكر أن تذهب إليها أنت.. نعم أنت.. وغداً إلى بيتها في برشلونة، سأعطيك عنوانها ورقم هاتفها ونوع الورد الذي تشتريه ومن أين والكلمات والوقت المناسب.. وهكذا سيكون الأمر لها

مفاجـــأة كـــبيرة.. فهـــي تعرف مدى أهمية أبنائي بالنسبة لي، وأنتَ تحديـــداً، وسيكون هذا أيضاً بمثابة اعتراف مني بحبـــي لها أمام عائلتي وهـــذا أمر يهم كل امرأة.. المرأة تشعر بثقة أكبر كلما وجدت حبيبها يقدمها ويعترف بها أمام الأشخاص الذين تعرف بأنهم يهمونه.. كذلك ســيكون الأمـــر فرصـــة جيدة لتتعارفا بشكل أفضل.. (لحظتها أيضاً فكـــرت في أن أســـأله عن كيفيه علاقته بالنساء بعد ما حدث له في التعذيب الكهربائي.. لكنني لم أجرؤ..).

لأبـــي نبرته وسلاسته الخاصتان في طرح حكمته، وفي أسلوبه بالإقـــنـــاع.. وهذا الطرح، بقدر ما فاجأني، بقدر ما أعجبني جانب الـــذكاء فيه، وانتابني لذلك شعور ما، بالرضى لأنه يستعيد تقاربنا بشكل أكبر.. أو ربما لشعوري بأنه بحاجة إلي.. لذا لم أكن رافضاً، بل أغراني الأمر، فأخبرته بأنني ملتزم بالعمل ولن يكون من السهل الـــذهاب إلى برشـــلونة وحـــل الإشكال والعودة في اليوم نفسه ثم الـــذهاب إلى عملي مباشرة.. لذا لا بد من التفكير بطريقة ننظم بها جـــدولاً مناسباً.. أو أن يمهلني لأطلب إجازة قصيرة لبضعة أيام من عملي..

وهنا جاءت مفاجأة أبـــي الأخرى، والتي عبر عنها بيقين ورغبة أكـــبر مـــن السابقتين، وهو يقول: ما رأيك في أن تترك عملك وتأتي للعمـــل معنا في المرقص.. نحن.. أنا بحاجة إلى وجودك.. وسندفع لك مـــرتباً أفضل، وتكون حراً في اختيار أوقات عملك.. تكون أنت سيداً من أصحاب العمل لا من مستخدَميه؟..

فتبـــسمتُ.. وربمـــا شهقتُ كمن يُبخّ وجهه برذاذ ماء بارد، ثم اســـتطردتُ، لا رافضاً.. أيضا، وإنما استطراداً مشابهاً لسابقه، فقلت: لكنني لا أفهم في عملكم شيئاً ولا خبرة لي فيه من أي نوع!..

ألقـــى بظهره على المسند نافضاً رماد سيجارته عن بُعد، ونافضاً كفه الأخرى استخفافاً تهويناً: - لاه.. هذه أمور بسيطة، وهذا عمل لا يحـــتاج إلى خبرة واحتراف.. يمكنك أن تتكفل بصندوق الحسابات مثلاً، أو بطلب الحاجات والتفاوض حول أسعارها ونقلها.. يعني أشياء إدارية عامة، بل إن أمور العمل الأخرى يمكن لفاطمة أن تعلمك إياها في سهرة واحدة.. هذه أمور بسيطة.. بسيطة يا سليم.. ها.. ما رأيك؟.

## - 13 -

رأيتُ بريقاً يتراقص في عينيه ورغبة مكبوتة بالقفز والصراخ جذلاً عندما وجد مني الاستجابة الموافِقة. مد كفه إلى جيبه وقال: اذهب إلى برشلونة بالطائرة هي أسرع وأكثر راحة.

لكـــني ممن يفضلون السفر بالقطارات، شيء أشعر معه بامتلاك فرصة طويلة من التأمل الذي أستدرّه على إيقاع سير القطار وهو يمرق بين وجوه الجغرافيا المتنوعة.. وكم يطيب لي أن أجلس فيه قرب نافذة أطـــل مـــنها على حركة الأرض، أشجار، أنهار، تلال، قرى، مدن، حـــيوانات، جـــبال، سهول، حقول، غيوم.. استعراض طويل لأرض عريضة وسماء فسيحة. عندها يسرح ذهني بالمراجعة والتذكر والتحليل والتخطيط والأحلام. صمت متواصل وتأمل متواصل.. تأمل يتم تناوبه بين الخارج والداخل.. إذا لم أتأمل الخارج أتأمل الداخل أو العكس.. حـــيث تكون عيناي محدقتين في أحدهما - الخارج أو الداخل - فيما عـــين الوعي تنبش في الآخر.. أو ينقلني أحدهما إلى الآخر عبر قنوات خفية منها الاستبصار مثلاً.. كما أن للأمر سمة رومانسية ربما انطبعت في ذهـــني من مشاهداتي للأفلام القديمة التي تكتظ بلقاءات وتوديعات وانـــتظارات العشاق في محطات القطارات أو شرودهم - مثلي الآن - للتذكـــر والتأمل، وهم أيضاً، عادة ما يختار لهم المُخرِج المقاعد المجاورة للنوافذ..

وهكـــذا فأنا لم أقرأ من الكتاب الذي حملته معي أكثر من سبع صـــفحات، ذلك أنني رحت أشرد في استعادة ليلة الأمس، ليلة عملي

الأولى في مـــرقص القشامر، حيث أبـــي يرقص ببهجة أعرف تماماً أن لوجـــودي معه وموافقاتي على ما أراده دور كبير فيها. فبعد أداء فقرته الكوميدية الافتتاحية، قام بدور روسا في الإشراف العام دون أن يهمل دوره الدعائي بالتنقل بين الزبائن. وعلى الرغم من أنه ظل يحمل في يده كأسه، إلا أنه لم يرتشف أكثر من قدحين من البيرة طوال السهرة التي تعمـــد أيضاً ألا تتأخر حتى الفجر كما في نهايات أسابيع أخرى، فقد اســـتطاع وبتهذيب وذكاء ما، أن ينهيها في الثالثة بعد منتصف الليل.. ربما كان يفكر بتعب فاطمة وبتعبـــي في يومي الأول وسفري في اليوم اللاحـــق. لكنه بالتأكيد لم يكن على بينة من نشوتنا أنا وفاطمة حيث التقارب التدريجي والاحتكاكات.

أســـتعيد من ليلة الأمس مشاعر انهيار الحواجز بيني وبين فاطمة التي كانـــت تعلمـــني كيفية إدارة الحسابات والاستجابة لطلبات الزبائن، كما تـــدلني علـــى أنواع المشروبات وكيفية تحضيرها وتقديمها.. كانت تقوم بالأمـــر مزدوجاً في آن واحد.. أي القيام بعملها وتعليمي، تؤديهما معاً.. فكـــنا معاً طوال السهر/العمل. خلف دكة البار. كانت تتحرك كأنها نحلة تطـــير بين أزهار متجاورة، دون أن تنسى شيئاً ودون أن تنسى ابتسامتها. في أثـــناء ذلك، ولضيق المكان، كثيراً ما تصادم أحدنا بالآخر واحتك به. كـــنا نـــشعر في دواخلنا بهذه الملامسات ونهتز حد القشعريرة العذبة وإن أظهـــرنا حياديتها/حياديتنا واعتذرنا بروتينية لبعضنا في بادئ الأمر، لكننا بعد أن تكررت رحنا نكتفي بالتبسم.. هذا إذا لم نكن نتعمدها أحياناً.

مـــن بين كل تلك التصادمات لا أستطيع إيقاف استعادة ذراعي محتكاً بأحد نهديها، ولا تمسُّح فخذي بردفيها عندما مررتُ من خلفها لأتـــناول شيئاً من إحدى العاملات في الصالة فيما كانت هي منحنية لإخـــراج المزيد من المزة/من علب الزيتون المركونة على الأرضية أسفل

أوطـــأ الرفوف. فخذي مر على ردفيها.. صورة أستعيدها منذ الأمس كثيراً، والآن على البطيء كما في التقنيات السينمائية، على مهل، على البطـــيء كـــأني أدقق متعمقاً.. لكنني في الحقيقة ألتذ. فخذي يتمسح بردفها الأول يجده لدناً طرياً متيناً كروياً معاً كبالون طفل ممتلئ بأنفاس أمـــه، ثم يواصـــل فخـــذي زحفه لينحدر في المنخفض بين الردفين في الوادي بين تلتين يمر القطار الآن وتسري الرعشة من فخذي إلى بدني، مروراً يصعد بعدها الردف الثاني وهو يواصل احتكاكه الحميمي وحتماً أنه قد فتحهما قليلاً.. هذا ما أتصوره وأرتعش.

لم يكـــن العمل صعباً كما تصورته.. بل على العكس، وجدت بأنه يعجـــبني، وخاصة ما يتيحه لي من تواصل دائم مع آخرين وتعامل مباشر معهـــم.. أمر كنت أعاني من فقدانه في عملي السابق كوني مجرد سائق لا تـــتجاوز العلاقـــات فـــيه أصحابـــي بالعمل كأنطونيو وماريو وصاحبته كـــارمن وصاحب وكالة التوزيع.. لذا كانت العزلة والوحدة طابعاً سائداً على حياتي.. أما هذا العمل فهو مختلف تماماً، لأنه يتيح التعامل مع مختلف الـــنماذج.. بل ويجبرك على إيجاد صيغ للتفاهم معها وفهمها، لأن القصد هـــو كـــسبها كزبائن.. أمر له إيجابياته أيضاً في أن ساعات العمل تنقضي ممتلـــئة بالحـــيوية والحياة وسريعة غير مملة.. لا شعور معها بالتعب أو الملل أثـــناءها، لكن فيما بعد، عند انتهائه حين تقرر أن تستريح ستشعر بالتعب وأوجاع في ساقيك لطول الوقوف.. لكنك ستستريح.

لا أســـتطيع الزعم بأن هذا الذي أشعر به تجاه فاطمة هو حب لا أســـتطيع مقاومته أو تفاديه.. لكن ربما أستطيع توصيفه بحالة معروفة، وهـــي أن يوكل الأمر فيها لسيادة العقل أكثر من القلب.. ثمة طرف آخـــر تعتقد بأنه يناسبك وبأنه يصلح لأن تقيم معه علاقة حب تدرك تمامـــاً بأنـــك ستحبه، حقيقة، لاحقاً بالمعاشرة. وبعد أن تتعرف عليه

تعــرف، مــسبقاً، بأنه يصلح لإقامة علاقة قد تقود إلى أن تصبحا في خاتمتها شريكين في الحياة، زوجين.. إذاً فالأمر لا يتعلق بالنظرة الأولى المهيمــنة، ولا بمشاعر انشداد وجذب غامضة تخرج عن نطاق سيطرة الإرادة، أو تــستحيل مقاومتها.. وإنما هو نوع من القناعة والاختيار.. بــل وفيه يسري منحى القصدية الواعية المدبرة. هذا بالنسبة لي فالذي أشــعر به تجاه فاطمة.. أو لأقل؛ الذي أفكر به، لأنه أصح من القول (أشعر به).. أنه يختلف تماماً عن هوسي وعشقي الراعف لعالية التي هي عــشقي الأول وربما الوحيد والأخير.. كانت عيناها الصغيرتان ثقبين ســحريين بالنسبة لي تستحيل علي مقاومتهما فمنهما وبهما أرى متعة حياتي ومعناها. فيما لفاطمة عينان واسعتان ورمشان طويلان سوداوان بــشكل أعــرف أنه الفتان وفق الذائقة التقليدية العامة.. وهما كذلك فعلاً: عينان فاتنتان.. لكنهما لا يفعلان بــي ما فعلتاه عينا عالية.

إذاً ففاطمــة يمكنني التفاهم معها، وثمة مودّة، وثمة اشتهاء.. إنها صــالحة ومناسبة ومستعدة للشروع بعلاقة حب.. إنها قابلة للحب.. ونظــراتها، طــريقة تعاملــها معي، نبرات صوتها عندما تحدثني، ردود أفعالها، توددها وابتسامتها الدائمة.. كل ذلك يؤكد بأنها هي الأخرى تــبادلني الرضا والموافقة ذاتهما.. بل إنه يشكل بمجمله صيغةً من النداء يدعوك للخطوة القادمة المعروفة.. ثمة نوع من الشعور، لا بد أن الجميع قــد مر به أو عرفه، وهو الشعور بأن الآخر المقابل يبادلك القناعة ذاتها والاستعداد ذاته، وأنه ثمة وجه من التفاهم والفهم الصامت، وأن الآخر بانتظار لحظة الشروع ببناء العلاقة.. بل ولدي هاجس إضافي يوحي لي بــأن أبــــي ومن خلال ما كان يشير به لأحدنا عن الآخر وممازحته لأحدنا أمام الآخر.. كان يدرك هذا الأمر.. هذا إذا لم يكن قد خطط له في داخله.. ويريده.

على مدى الساعات السبع إلى برشلونة، كان لفاطمة وذكريات تفاصيل ليلة الأمس، الحصة الأكبر من الاستعادة، وبأقل منها بكثير تداخلات ذكرياتي عن عالية التي كانت عادة ما تهيمن علي كلما مر القطار جوار ماء.. نهر أو بحيرة أو بحر. فيما كنت أطرد فكرة واحدة من رأسي كلما تقدمت إلى طابور تأملاتي.. ألا وهي قرار أبي بتنفيذ قَسمه الذي غامر من أجله وأوصله كهدف إلى هنا، أي إدخال الرصاصة المتبقية من مسدس ذلك الصبي في مؤخرة الدبلوماسي في السفارة العراقية، أي تلك المؤخرة ذاتها. كنت أشعر بالضيق وعسر هضم هذه الفكرة.. بل وغرائبيتها، على الأقل، بعد أن تركَت تجربة أعوام العِشرة في الغرب آثارها عليّ بحيثُ تجعلني أرى في أمر كهذا تهوراً وقسوة لا إنسانية.. وبأنه سلوك مرَضي نتائجه وخيمة. فكيف لي أن أثني أبي عنها وهي هدفه وقَسمه على المصحف أمام جدي؟؟..

لا أستطيع التفكير في الأمر بشكل سليم، ولا أجد لدي صيغة واضحة للتعامل معه بحكم كونه جوهرياً في حياة أبي وتفكيره وعزمه. لذا أكتفي بتذكر بعض التفاصيل مما أوصاني به أبي بما يتعلق بمهمتي هذه إلى روسا. لقد تحدث كثيراً لكنني اكتفيت بالأساسي منها، وهي أن أشتري لها باقة من أزهار الياسمين الأبيض الكبيرة من محل قريب لبيتها، أحملها لها بعد أن أضع عليها البطاقة التي كتب فيها شيئاً وطواها، واستعملتها أنا فاصلة للقراءة في الكتاب دون أن أجد رغبة أو فضول بالاطلاع على ما خطه فيها. ولم أحرص على حفظ التفاصيل مما أراد مني أن أقوله لها، سأترك للقاء وللأحاديث عفويتها، فكل ما يريده هو أن تَرضى وتعود إليه.. لذا فإن كانت هي في داخلها تريد ذلك فليس هناك مدعاة للكثير من كلامي وكذلك الأمر فيما لو أنها قد قررت في نفسها هَجره.

إذاً ســـأكتفي بالتحدث في منحى عودتما بما يمليه علي عفو الحالة وســـياقات الكـــلام. وكل ما علي فعله هو أن أحمل إليها باقة الياسمين وأدق على جرس بيتها على العنوان الذي كتبه لي.. ولست قلقاً ولا ثمة شـــعور بارتـــباك ما، فيما يتعلق بطبيعة تعاملي معها.. بل أشعر بثقة غـــريبة.. أو لا أدري.. كأنـــنا نعرف بعضنا جيداً.. ربما بحكم رصيد فهمـــي الجـــيد للشخصية والثقافة الإسبانية عموماً.. أو تراه نوعاً من الـــبرود والعادية إذا جاز القول، فالكثير ممن يعرفونني يصفونني بذلك، وأفكر أحياناً بأن الأمر يعود إلى تأثيرات عالية علي بشكل ما.

وفي كل الأحوال فأنا أعرف تماماً إلى أين اذهب في برشلونة التي أمضيت فيها أسبوعين من عطلة صيف العام الفائت فشدتني إليها بخليط الأعـــراق والبنايات المتعايشة على الرغم من فارق أعمار إنشائها، تلك الـــبالغة القدم مع تلك البالغة الجدة. ومهرجانية شارع الرامبلاس الذي يلذ لي التمشي فيه ذهاباً وإياباً، ليلاً ونهاراً، بين طرف يؤدي إلى البحر وطـــرف يـــؤدي إلى اكتظاظ وسط المدينة الحي، وأكثر ما يعجبني في برشـــلونة شـــيئان أرى أنهما من يمنح لهذه المدينة ساقين تقف عليهما هويـــتها المدهـــشة الجاذبة، وهما: البحر وبصمات عبقريها غاودي.. أمـــضيت أيامي هنا بينهما بلا ملل مأخوذاً بما يمكن توصيفه بالاتساع والهائـــل والثـــري والكـــوني القائـــد إلى ملامسة الدفين من القلق الوجـــودي تحفيـــزاً أو مداعبة مُهدئة.. شيء ما، يشبه التعامل مع الطبـــيعة الشاسعة.. وكل منها يبدو وكأنه طبيعة عظيمة بحد ذاتها ولـــيس كجزء منها.. لبرشلونة أيضاً روحية توحي لزائرها باستمرارية التاريخي المتنوع اللامنقطع، فيمنحك التداخل العائلي فيها واعتراف ما، بقـــوة الحياة وعظمتها وعذوبتها ومهرجانيتها.. ترى ما الذي يعجب أبـــي ببرشلونة؟!.

وصلت في الساعة الرابعة مساءً، لم تكن معي إلا حقيبة الكتف الصغيرة التي اعتدت على حملها واضعاً فيها كتباً للقراءة ودفتراً وأوراقاً وأقلاماً ومناديل ورقية وعلب سجائر ومشطاً صغيراً.. لذا كنت أول النازلين من القطار، وتوجهت مباشرة إلى حمّامات المحطة، أفرغت بطني ومثانتي وأنفي فيها. غسلت يديّ ووجهي بماء بارد، وبللت رأسي ماسحاً على الرقبة، ثم أخرجت مشطي الصغير من جيب الحقيبة، صففت شعر رأسي وحاجبي وشاربي.. وخرجت شاعراً بالصحو والراحة. أخذت سيارة تاكسي متوجهاً إلى عنوان روسا.. لكنني هناك لم أطرق جرس باب بيتها وإنما توجهت حالاً إلى محل بيع الزهور الذي وجدته كما وصفه أبي. اشتريت باقة الياسمين واستللتُ البطاقة من بين إطباقَة صفحات الكتاب طالباً من البائعة الشابة ربطها بباقة الياسمين، ففعلت ذلك بخيط ملون أنيق.

خرجتُ بعدها إلى مقهى مجاور، اتصلت منه بروسا فأصابتها الدهشة وقالت بأنها ستأتي حالاً. حجزت لنا طاولة قرب نافذة، قرب نافورة زجاجية صغيرة شوّهت صفاء ماءها أضواء المصابيح الملونة المغروسة في حوضها. طلبت قهوة بالحليب.. أرتشفها وأدخن محدقاً عبر النافذة إلى باب العمارة التي فيها شقة روسا.. حتى أطلت هي وقد ارتدت بدلة بيضاء مطرزة الياقة بشرائط زهرية اللون وفي ذراعها حقيبة تشبه سلة بحكم كونها مصنوعة من جريد نباتات مُجَففة.. هل هو القِنَّب أم سعف نخيل؟..

روسا طويلة ممتلئة يلتمع شعرها الأشقر تحت ضوء شمس المساء وهي تديره إلى الجهتين متفحصة مسيرة السيارات حتى اجتازت الشارع مهرولة مباشرة دون الذهاب إلى منطقة خطوط عبور المشاة. أقبَلت تسير على عجل يهتز صدرها العامر تحت بياض قميصها

وقلادتين إحداهما فضية الخرز والأخرى بيضاء مصفرة بلون العظام أو هي من عظام. من يراها لن يحسب بأنها قد اقتربت من الخمسين عاماً.. وها هو عطرها يسبقها بالدخول. حيّت عمال المقهى، وبدا واضحاً مدى تعارفهما، ثم بحثَت عني. رفعتُ ذراعي لها ملوحاً فأقبلت سريعة وتعانقنا.

ما إن جلست قبالتي تطفح منها البهجة وتعززها بالترديد: يا للمفاجأة.. يا لها من مفاجأة جميلة.

اقترب منها النادل وقال: كالعادة؟.

هزت رأسها له وواصَلت تعبيرها لي عن سرورها، فسارعتُ إلى دفع باقة الورد إليها، وكنت قد وضعتها على الكرسي المجاور لي فهتفَت: أوووه.. يا للروعة.. شكراً يا سليم.

قلت لها: الشكر ليس لي وإنما لمن بعثها، صاحب البطاقة.

فراحت أصابعها تفض المغلف ثم البطاقة التي كانت بأكثر من طية، حين فتحتها صدر عنها عزف هادئ لموسيقى أغنية عيد الميلاد المعروفة: أوووه.. فغداً عيد ميلادي. شهقت روسا وراحت تقرأ بابتسامة مثقلة بمعاني الوله، ولم تنتبه إلى النادل الذي وضع أمامها قدحاً بالغ الارتفاع على الطريقة الألمانية ممتلئاً بالبيرة ثم انصرف بصمت، فيما أشعلتُ أنا سيجارة أخرى وارتشفت من قهوتي محدقاً في وجهها فشاهدت الدمع يسيل من عينيها بغزارة تاركة إياه يبلل ابتسامتها المتبدلة بين حالتي البكاء والفرح.. لحظتها يستحيل على من يراها أن يشك، ولو قليلاً، بعمق عشق هذه المرأة لنوح.

طوت البطاقة وضمتها إلى صدرها، تقبلها وتشهق، فسارعتُ بأن أدفع لها منديلاً أخرجته من حقيبتي. مسحت دمعها. ضحكَت بفم شده الانفعال وقالت:

- أبوك رجل مجنون.. وأنا الأخرى مجنونة لأنني أحبه بجنون.

ندمتُ لحظتها على كوني لم أقرأ ما كتبه لها في البطاقة. ولا أدري كيف نهضتُ واستدرتُ إلى الجهة الأخرى من الطاولة واحتضنتها جالسة، فبكت على رقبتي باتساع واهتزاز ومسرّة، تركتها شادة إياي إليها لبرهة حتى هدأت، ثم قبّلتُ جبهتها وأعنتها على مسح دمعها وعدت إلى مكاني.. قالت: شكراً لك يا سليم.

هدأت وارتشفت من كأسها، شمّت باقة الياسمين ووضعتها جوارها فوق الحقيبة واندلعت بالكلام:

- لم أحبب رجلاً كما أحببت أبيك.. حين وجدته لم أجد في نفسي وقلبي أي حاجز يعيق دخوله.. شعرتُ بأنه هو الرجل الذي طالما انتظرته طويلاً.. هو بعينه.. هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا، مثلاً (ضاحكة) مسألة حبنا للألمان.. هل تعلم بأنني ومنذ طفولتي ينادونني في العائلة والمدرسة بالألمانية؟ لأنني أشبههم كثيراً.. شعري الأشقر هذا الذي تراه لونه حقيقي وليس مصبوغاً.. هيئتي الجثيثة العريضة الكتفين.. وأنا راق لي الأمر مبكراً.. لذا درستُ الألمانية كلغة ثانية، ثم تابعتُ ذلك في معهد غوته. ومنذ صباي أكاد أسافر إلى ألمانيا سنوياً تقريباً.. حديثي الأول مع أبيك في مطعمه البغدادي بدأ من هذه النقطة أيضاً، فشعرت على الفور.. وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، حيث كانت أولى كلماته لي: هل أنتِ ألمانية؟.. فأجبته بالألمانية بأن: لا، وإنما أنا إسبانية ويقال بأن إحدى جداتي هي من أصل ألماني. جلس من فوره إلى جواري ورحنا نتحدث بالألمانية وهو بين الجد والمزاح يصر على أنني ألمانية متخفية بجلد إسبانية.. تحدثنا عن فروقات الشعبين والثقافتين ثم عن غوته الذي نحبه معاً فأدهشني أنه راح يتلو من ذاكرته مقاطع طويلة من أشعاره. الفرق بين الألمانيات وبيني أنني امرأة ثرثارة

أحب الكلام كثيراً على العكس منهن (تضحك وتعلق) أنا إسبانية تماماً بهذه الصفة كما تعلم، وهذا فقط، الذي لا يعجب أبوك فيَّ.

هززتُ رأسي متذكراً شكواه من هذا الأمر حين تناولنا غداءنا بالأمس، حيث قال: بأن المشكلة الوحيدة أنها ثرثارة.. يا أخي.. تُصدع رأسي بالكلام الفارغ حتى ساعات متأخرة من الليل.. (وبتهكم) أحياناً أفكر بأن الدكتاتورية أرحم لرأسي من عذاب لغوها.. على الأقل فالدكتاتورية تردد العبارات التافهة الفضفاضة ذاتها.. لذا تصم أذنيك عنها وتستريح، لكن هذه، في المقهى والشارع والبيت والفراش على الوسادة نفسها تصب لغوها في فرْج أُم أذنيْ تماماً.. يبتسم ويضيف: لكنها طيبة وصادقة وكريمة على أية حال.

روسا تواصل هذرها ساردة حياتها ومعلّقة على كل فقرة؛ والدها كان تاجراً معروفاً للذهب في برشلونة، هي البنت الوحيدة لوالديها، زوجها أرجنتيني وهو الآخر تاجر ذهب انفصلت عنه بلا إنجاب وحملته السبب في ذلك، لم أحبه لكنه كان رجل أعمال ممتاز استطاع أن يواصل إدارة تجارة أبي بعد موته.. لكنه عمليّ أكثر من اللازم وأنا رومانسية. أشارت من النافذة إلى جهة بيتها وقالت: هذه العمارة ملكي والمحل الذي في وسط المدينة أجرته بمبلغ جيد. اشتريتُ أيضاً، منذ ثلاثة أعوام، بيتاً صغيراً جميلاً في ضواحي برلين، كلما ضقتُ ذرعاً هنا أهرب إليه لشهر أو لشهرين.. إذا كنتُ ألمانية الشكل والثقافة فأبوك يشبههم في العناد.. (وضحكَت). نحن هنا نقول عن العنيد بأن رأسه مربع.. تخيَّل أنه هو المولع بألمانيا مثلي، كلما قلت له لنذهب للعيش هناك.. يرفض قائلاً: ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد.

أصختُ إليها السمع أكثر، هذه المرة، بنية أن أعرف فيما إذا كانت على علم بهدفه الحقيقي من إصراره على البقاء في إسبانيا،

وتحديداً في مدريد، أعني سر ميدالية مفاتيحه/الرصاصة. وحين وجدتها تعبُر في حديثها إلى أمر آخر، سألتها: ولا تعرفين السبب؟. قالت: لا.. فقط يردد ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد. إنه مجرد عناد.. ألم أقل لك بأن رأسه مربّع.. ولكن.. ها.. قلبه دائري.. إنه يخفي بين جوانحه قلباً هائل الطيبة والرحمة والحلاوة.

- هل أفهم من هذا بأنك ستقبلين وساطتي وتعودين إليه؟.

ضحكَت - طبعاً.. بالتأكيد.. فأنا سأصاب بالجنون أو أموت لو افترقنا.. سآخذ الطائرة هذه الليلة نفسها.. هل أحجز لك معي؟.

- لا.. أنـــا مُتعَب، سأبات الليلة هنا وغداً سأعود بالقطار.. أنا أحب القطارات.

- إذاً سأعطيك مفتاح بيتي.. أما أنا فلا أستطيع الانتظار حتى الغد.

تُواصـــل هي حديثها الذي اسمعه دون أن أعيه في داخلي، مكتفياً بهز الرأس، فقد كنت أفكر بالصيغة المناسبة التي سأسألها بها عن كيفية ممارســة الحب بينهما وأنا أعرف ما تم تعطيله في أبـــي، في تلك الأيام البعيدة من التعذيب الكهربائي في تكريت.. وأخيراً قررت المحاولة.

- لـــدي ســـؤال أتردد في طرحه ولكنني شديد الفضول لمعرفة الإجابة عليه..

- اســأل.. اســأل.. يـــا سليم.. أنت عزيز على قلبـــي ونحن صديقان.. أليس كذلك؟.

- نعـــم بالتأكيد.. ولكنه شخصي وخاص.. يمكنك ألا تجيبـــي عليه إذا شئت.

مـــدَّت كفها وربتت على كفي: - سليم.. يا سليم.. لا حواجز بينـــنا منذ الآن، ولك أن تثق باستيداعي أسرارك أيضاً إذا شئت.. ألم أحدثك أنا عن نفسي بلا تردد؟.

- نعـــم.. نعـــم.. هو مجرد تساؤل.. يعني.. مثلاً.. أستغرب من شدة غيرَتك عليه إلى هذا الحد و..

قاطعـــتني منتفـــضة: - كيف لا أغار عليه.. إنه حبيـــي.. وهو اللعـــين مـــشاكس يجيد التعامل مع النساء.. لديه القدرة على الإيقاع بأكثرهن انغلاقاً.. أنا أعرفه جيداً وأعرف لسانه.. وأنت حتماً تعرفه.

لم أشأ أن أقول لها بأنني في الحقيقة لم أكن أعرف عنه ذلك أبداً، وإنمـــا لاحظـــته مؤخـــراً هـــنا.. اكتشفته وأثار استغرابـــي ودهشتي فتـــصادمت تـــصوراتي عـــنه في رأسي. لم تُجب هي بما قالته على ما أردتُ.. لكـــن الأمر يشجع بمواصلة المحاولة.. فقلت بشكل متردد أو بتردد مصطنع:

- لا.. يعـــني.. ولكـــن، عِديني بأن لا يعرف أبـــي بما سأسلك عنه.

رفعت الصليب الذهبـــي في قلادتها إلى فمها وقبّلته قائلة- أقسم لك.. سليم.. يا سليم.. إن سرك في قبر.. ثق بـــي.

- يعـــني.. قـــصدي كرجل وامرأة.. كأي رجل وامرأة.. أنتِ وهو.. يعني.. قصدي في السرير..

فضحكَت ملقية بظهرها العريض على مسند الكرسي ثم عاودت الاقتراب وقالت بجدية:

- أوووه.. فهمـــتُ قصدك الآن.. فهمت قصدك.. اسمع، لأبيك أصابع مُذهلة يجيد العزف بها على كل آلات الجسد بمهارة تفوق أكبر العازفين.. يا إلهي.. لم أعرف المُتع واللذة التي عرفتها معه، مع أي رجل غيره أبداً.. له أساليب غريبة ومُدهشة كتوظيفه للتَمر مثلاً، ولا تسألني كـــيف، ولسانه أيضاً.. يا للسانه، وركبتيه وو..ا. وكما تعلم فالمرأة، وخاصـــة الرومانـــسية مثلي، لا تبحث في الرجل عن مزيد من زوائد

اللحـــم.. وإنما الذي يشدها إليه أشياء أخرى كثيرة، فالحب ليس هو لحظـــات الفـــراش القصيرة وحسب، وإنما هو مجموع تفاصيل كثيرة، ومـــنها مـــثلاً، صـــفة الرجولة في سلوكه وذهنيته وشخصيته، طريقة الكـــلام، نـــبرة الـــصوت، طبيعة النظرات، طبيعة اللمسات، أماكنها وتوقيتاتها.. الشعور إلى جانبه بالثقة والقوة والدفء، والـــ..

وواصلَت الكلام عن الحب.. بحب.

## - 14 -

ثمة أناس يلذ لهم العيش بصفة الانشغال الدائم، لذا فهم يتحدثون عن مشاريع كثيرة ليس بالضرورة أن تكون واقعية، ويرصفون الوعود والمواعيد والتعهدات المصاغة كلاماً ويعلقونها على رصيف زمنهم المؤجَّل. البعض تراه مشغولاً فعلاً ومن لم يكن، فعلى الأقل يشعرهم المظهر الانشغالي بنوع من أهميتهم. ثمة أناس آخرون على العكس من هؤلاء - وأنا منهم - يفضلون أن تكون مفردات حياتهم واضحة ومحددة تسهل سيطرتهم عليها وإدارتها، لذا فإن أي شأن معلّق يشعرهم بأنهم معلّقون.. نوع من القلق يؤرقهم.. ربما من هنا جاءت عادتي في أن أنفرد بنفسي بعد كل كلام مهم أو حادث، أستعيده وأحلله كأنني أحاول ترتيبه ضمن ما أعتقد أنه مُرتب في حياتي، من هنا أيضاً ربما يأتي تفسير هربي من قريتي أيام تعفن الجثث، وشعوري بالاختناق لانعدام وسائلي في ترتيب كل تلك الحال المعقدة..

أسوق هذه المقدمة لأتحدث عن الأمر الأهم الذي بقي معلقاً ويؤرقني، ألا وهو هدف أبي في أن يغرز الرصاصة الأخيرة في مؤخرة الدبلوماسي الذي كان فتى متهوراً ذات يوم. لذا تُربكني ابتساماته وغمزاته الموحية لي ودائماً أفسرها كإشارة للسر الذي بيننا، يرعبني التفكير بقدوم اللحظة التي سيُفاتحني فيها بالأمر ويطلب مشاركتي.. بالتأكيد سأرفض، لكن المشكلة - المعلّقة بالنسبة لي - تكمن في كيفية أن أثنيه عن تنفيذ هذا الأمر.. وخاصة أنني أعرف بأنه هدف أساسي لرحلته الغريبة هذه وغاية لكل هذا الذي يخطط له ويمثل ويعمل ويجامل

ويحــتمل.. إنه القَسم أمام جدي، الذي لن يشعر بالراحة أبداً ما لم يبر به.

هــا أنــا بعد مرور شهر، تقريباً، على عملي في المرقص، أجدني منــسجماً وراضياً بل وملتذاً بهذا العمل، وربما للشعور بحيويته وتجدده عبر تجدد الناس وصبغته الاحتفالية أثر في ذلك، كذلك الشعور بحريتي بالحضور أو التأخر أو الغياب وبأنني صاحب عمل أكثر من كوني مجرد عامل مأمور. الأمر الآخر هو تطور علاقتي بفاطمة نحو مصيرها المتوقَّع، فقــد أصــبحنا حبيبين علناً بعد أن تصارحنا بما في الأذهان والقلوب والرغبات، الاحتكاكات اليومية في العمل قادتنا إلى احتكاكات أوسع امتدت إلى الشارع ومحيط القريبين إلينا وإلى البيت، فقد تكرر طلبها، حــين تتأخــر، أن تنام في بيتي حتى انتهيت إلى أن أمنحها نسخة من المفاتــيح، وبــدت جلية بصمات وجود المرأة في حياتي وفي بيتي. لقد انفتحنا على بعضنا بشكل كلي، تلامسنا وقبَّلنا بعضنا وتشاركنا النوم في ســريري وفي اختــيار الملابس والذهاب إلى السينما في أيام عطلتنا الأســبوعية. أخــبرَت هي أختها، التي سارعت أنا لمساعدتها في بعض الواجبات المدرسية، وأخبرتُ أنا أبــي وروسا اللذين قالا إنهما يعرفان وباركــا لنا.. كذلك عرف بالأمر زبائننا الدائمون والأصدقاء وجارتي الكوبية وبواب العمارة..

أعــي تماماً بأن فاطمة ليست عالية ولا يُفترض بــي المقارنة كي لا أجــبرها على تلبس سلوكيات ليست من شخصيتها حقيقة، فلكل إنسان كيانه المختلف، وكنت دائم الانتباه مع نفسي للأمر.. ولكنني لم أستطع بأن أقتلع قطعياً جذور عالية من روحي.. لذا لم أستطع أن ألغي كــل المقارنات بينهما مع نفسي.. لفاطمة عينان واسعتان تبرز دوائر ســوادهما جذابــة وسط سطوع الأبيض، فيما لعالية عينان صغيرتان

تخترقان روحي. لفاطمة شفتان إفريقيتان غليظتان وهما ضعف شفتي عالية الرفيعتين حجماً، لذا فهما حقل خصب لقطف القبلات الشهية.. الجميل في الأمر أنني تمكنت من إقناع فاطمة بأن نطلي، بين حين وآخر، أصابعنا وشفاهنا بالتمر وعسله ونمصهما غرقى في التقبيل.. لقد استغربت الأمر في بادئه لكنها راحت تعتاده.. بل وتستسيغ لذته الأمر الذي أشعرني بالراحة والكفاية والانتصار.. وكأني قد صرت أرى في هذا الأمر مسألة جوهرية للتطابق مع هويتي خاصة بعدما ألمحت به روسا عن أساليب يتبعها أبي مع التمر، فاستطعت، على ضوء ذلك ودهشتي، تفسير أوسع لوجود التمر في شقتهما في مدريد وتوفره في بيتها في برشلونة الذي بت فيه وحيداً.

كان مرتباً كأنه مكان سياحي، وحين رأيت النباتات وأصص الأزهار تملأ أرجاءه تذكرت بأن بيتي يخلو من أية نبتة، وقلت كيف ذلك وأنا من عائلة فلاحين فيما هي ابنة تاجر للذهب؟!.. لم أطِل بتأمل المسألة حينها مكتفياً بأول تبرير وجدته حين قلت: كلٌ يبحث عما ينقصه.. لكنني فكرت بأن أضع شيئاً من الخضرة مستقبلاً في بيتي الشيئي.. ذلك أن الذي استغرقني في قطار العودة هو التفكير بأصابع أبي وبالتمر والذي قادني إلى التساؤل عن إصرار جدي على توافر كيس تمر في بيتنا.. فهل كان جدي مثلنا هو الآخر؟.. وانتابني التفكير بأننا نحن الثلاثة نتشابه في أشياء كثيرة، ربما نحن في الأصل شخص واحد تعدد في أكثر من جسد وجيل، لكننا نختلف عن بعضنا في الكثير أيضاً!.. فهل هو نوع من محاولات الطبيعة البشرية للتكامل؟.. وما هذا المناخ الخاص في علاقتنا الذي تتخفى فيه رغبة كل واحد منا بتربية أو إعادة تربية الآخر؟!.. ترى هل أن ما يتشابه فينا أكثر مما يختلف؟.. هل نحن حقاً ثلاثة مستقلين في كينوناتنا عن بعضنا تماماً؟.. حينها حمَّلتُ

القطار، وحمَلَني، طوال الرحلة الكثير من الأسئلة حتى وصلنا و لم نصل إلى أجوبة.

حين هممت بممارسة الحب مع فاطمة ذات ليلة، اعتذرت قائلة بأنها تفضل ألا يحدث ذلك إلا في حالة الزواج.. سرني الأمر كثيراً لأن هذا ما كنت أتمناه وأريده أصلاً في داخلي.. ربما كنوع من المقاومة حتى النهاية في عدم الوقوع في الخطيئة التي زرع جدي في ضميري حرائق الرعب من عواقبها. فعبرت لها عن موافقتي.. بل سروري بذلك، وما كنت لأنوي فعله - مع شديد التردد - إلا لظني بأنها قد ترتاب برجولتي وأن لمعيشتها في الغرب أعواماً تأثيراً على قناعاتها تجاه مسألة كهذه.. فكشفت لي بأنها لم تقم بالأمر إلا مع زوجها السابق وهي الأخرى تحرص بمقاومة صعبة على عدم وقوعها في الخطيئة، لذا كنا نمارس كل شيء باستثناء المواقَعة.

أمر آخر جعلها أقرب إلى عالمي الخاص، هو تذكيرها إياي بمواعيد الصلاة ومن ثم معاودتها لأدائها متقطعة في البداية ثم منتظمة. بالتأكيد حدثتُ فاطمة عن عالية كثيراً ودمعت عيناها حين رأت عيني تدمعان عند حديثي عن مشهد غرقها فاحتضنتني بحنان فائق أتاح لي سكب بكائي بارتياح، كما لم تبد أية غيرة من وجودها في ذاكرتي لاحقاً. وحين حدثتها عن الأشعار التي كنت أكتبها لها ورد فعل عالية عليها ضحكَت، ومن خلال توسيع الكلام عن الشعر وإجاباتي عرفَت بأنني مازلت أكتب الشعر، وعرفتُ أنا طبيعة رأيها فيه فوجدته حيادياً تماماً.. أو هي في الحقيقة غير مهتمة به وإن قالت - مثل كل الناس - بأن الشعر يعجبها. تلت هي من الذاكرة أبياتاً من الشعر الكلاسيكي كانت قد حفظتها من أيام الدراسة و لم تحفظ أو تقرأ غيرها، فيما تكاد تحفظ كلمات كل الأغاني العربية والإسبانية. سألتني أن أريها شيئاً من

شِعري، فحاولت الممانعة كي لا أضع شيئاً قد لا ننسجم فيه، لكنني انتهيت بالموافقة بعد التفكير بضرورة أن تعرف وتطلع على ما يهمني.

لا أدري أين وضعت ما أسميته قصائد.. لحظة سأبحث عنها، ربما تكون وسط أحد الكتب التي قرأتها قبل أربعة أعوام، ثمة صندوق يحتوي بعضها تحت سريري. تعالي الغبار وعطست، هذه واحدة.. هل أقرأها لك؟.. لا.. إني أخجل من ذلك.. لا.. أو نعم سأقرأها كنموذج، اسمعي، وطبعاً فالمقصودة هنا هي عالية، اسمعي:

ألمن من ضوء زنزانة
أعذب من تمر الصائم
شفتاها.. تمرتان
أصابعها فاكهة فريدة
وعيناها.. بلا قواميس.
مَرت على استحياء تُلغم الغيم بالنظرات
فلاحة أينعت في غفلة الساسة
حلمتاها على العشق حرام
مباحتان للماء ونسيم السطوح
ستأوي للغياب ولن تروها
أبداً.. أبداً.

كانت قد ابتسمت عند ذكري للتمر، وعند الانتهاء صفقَت بمرح وقالت أعجبتني، ثم سألت ببراءة: أهذا شِعر؟. أدركت لاحقاً بأنها لا تعرف بوجود شعر حديث بلا قافية، فاستغرقتُ بالكلام لها عن الشِعر الحديث مستشهداً بنماذج من قصائد السياب والأغنيات الريفية. إذاً فهي بشأن الشِعر تَفرق عن عالية.

ترسـخت قناعتي تماماً بكون فاطمة هي المرأة المناسبة لمشاركتي بقـية حياتي، وبوضوح أكثر بأن تكون زوجتي، فرحنا نتحدث بالأمر علـى هذا النحو ونخطط لإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتحة أهالينا به.. ترى هـل أن أبـي، هو الآخر، يفكر بإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتحتي بقرار اختـياره للحظـة تنفيذ هدفه؟!.. هذا وحده هو أكثر ما كان يربكني ويقلقني، فها أنا أجد حياتي مرتبة، أُدرك حدود مفرداتها المنظمة، وفق اعتقادي، بوضوح.. وخاصة ما يتعلق بالعمل والمرأة والغد الذي أكاد أراه منذ الآن.

أوشك أحياناً أن أفاتحه، أنا، بالأمر وأحوّل قلق انتظار اللحظة المناسـبة لتكون بيدي، لكن الذي يستعصيَ علي هو إيجاد المدخل المناسـب أو الآراء الـتي سأسوقها عليه بحيث تكون من القوة في حجـتها قادرة على ثنيه عما عزم عليه.. وهكذا أتت، كما يحدث كـثيراً في الحياة، تلك اللحظة لوحدها.. بلا اختيار أو قرار مني أو مـنه، وذلك عند زيارته الأولى لشقتي حين جاء قبيل الظهر لشؤون تتعلق بالعمل وبنيّة أن يرى بيتي الذي دعوته لزيارته لأكثر من مرة - كما زعم -. وأول ما هاله - كما حدث مع كل الزائرين لبيتي تقـريباً - هو هذا المشهد الطاغي لصور العراق وهي تغطي سقف الصالة وجدرانها.. لكن الذي فاجأني هو الاختلاف برد فعله عمن سـواه.. فبعد أن جال لأكثر من مرة محدقاً بها ومقترباً من بعضها لتدقـيق النظر وإمعانه، نظر إليّ بتعابير محتبسة، نظرة طويلة.. كأنه يـبحث خلالها عن التعبير الموفق عما يريد، وهكذا كان، فبعد أن صـفقَ كفاً بكف، ثم عقد ذراعيه على صدره أمامي وهو ما يزال واقفاً، قال: ما هذا يا سليم؟؟!.. ونبرته المُدينة أثّرت على صيغة نبرة تساؤلي وأنا أنطق: ماذا؟!.

قال: كنتُ أظن بأنك أعقَل من هذا.. وألا تقع في الحنين المَرضي الذي يقع فيه جل المغتربين حين يصورون لأنفسهم بأن كل شيء جميل في بلادهم التي غادروها.. بما في ذلك الخرائب والمزابل..

قلت: إنه وطننا يا أبـــي.. إنه وطني.

حـــل عقـــدة ذراعيه ليستخدمهما بالتوضيح نافضاً إحداهما في الهواء: لا.. إن وطننا الحقيقي هو الذي نصوغه نحن بأنفسنا كما نريد.. لا كمـــا صـــاغه غيرنا، كما فعل الطاغية.. إنه على هذا النحو ليس الـــوطن الذي نريده.. ولهذا هجرناه. الوطن مثل الحب يكون اختياراً وليس فرضاً.. وإذا كان لابد لك أن تضع صوراً للوطن فضع تلك التي تريدها أنت أو حتى تلك التي تصوغها بنفسك أنت.. لا.. لا..

كـــان يهـــز كفـــه تجاه الصور كمن يودعها، أو كمن يرفض شيئاً قدَّمَـــته له الجدران. دار حول نفسه ثم جلس على الكنبة زافراً وهو يواصل التعبير عن خيبته: لا.. لا.. كنت أظن بأنك أعقل مما أنت عليه..!.

اســـتفزني قوله.. شعرت بأنه يهدّ مملكتي التي بنيتها ورتبتها بصبر مواظب على مدى أعوام، وأنا أكاد أخترع في وحدتي لكل صورة من هـــذه الصور حكاية وتاريخاً وعالماً بأكمله.. لقد أغاظني شطبه المتعالي هـــذا، بلحظـــة واحدة وبكل بساطة، لكل هذا الذي أقمته وعايشته بقـــناعة طوال أعوام غربتي العشرة هنا.. شعرت وكأنه بقنبلة واحدة يقـــتل كل عائلتي التي كونتُها بجهد طويل وبمحبة وأحلام خاصة.. لذا أصـــابني مـــا أصابه من الصمت باحثاً عن الرد الشافي الذي يثأر لنفسي الجريحة، زفرت أنا الآخر ووجدت نفسي أرتعد. حرارة جسدي تتصاعد، ثم أسارع للجلوس أمامه وأنظر في عينيه بتحد عاصف وحال من القوة لم أعهـــد عليها ذاتي من قبل أبداً، لتخرج كلماتي على إثرها مختنقة، محتدة، صادمة بهجوميتها: وأنا أيضاً كنت أظن بأنك أعقل مما أنتَ عليه.

فاجأه قولي بالطبع فقال: كيف؟!.

ابـــتعدتُ عنه قليلاً، رافعاً الكرسي الذي أجلس عليه إلى الخلف ومنـــــــزلاً إيـــاه. قلت: أن تفعل كل هذا الذي فعلته من أجل تحقيق هدف متخلف وتافه ومجنون كوضع رصاصة في مؤخرة شخص آخر. تخـــدع أمي وتهجر عائلتك، وتخدع روسا وتستغلها، ثم هذا الانقلاب الراديكالي على كل إرثك الشخصي والأخلاقي والديني.. كل ذلك من أجل هدف سخيف!؟..

شعرت بقوة وراحة بعد أن قلت ذلك، وخاصة بعد أن لاحظت تمكني من إغاظته واستفزازه بالدرجة ذاتها، إن لم تكن تفوقها، تلك التي استفزني بها. فقد اعتصر وجهه محمراً كأنني طعنته، مسح وجهه بكفيه هـــازاً رأسه في راحتيه بهدف امتصاص الصدمة أو بهدف السيطرة على أعـــصابه ورد فعلـــه، والدليل تغيّر نبرة صوته التي كانت واضحة في الشهادة على صعوبة التعقل المقصود.. إلى حد ما:

-.. أنا لم أخدع أحداً، لا أمكَ التي أوضحت لها كل الأمر، كما سبق وأن أخبرتك، ولا روسا التي أنا أحبها فعلاً، كما أنني لم أنقلب على إرثي الأخلاقي والديني، كما تقول، وإنما على العكس مـــن ذلك.. إنني بما أنوي فعله.. إنما أقوم بالتنفيذ الصميمي والجاد له.. وما كل هذا الذي أحرثُ بقسوة من أجله إلا لكي أبر بقَسم أقـــسمته على القرآن أمام كائن غائب إلى الأبد، فلو لم أكن ملتزماً بإرثي الأخلاقي فعلاً لما كان هناك شيء آخر يجبرني على البر بقَسم كهذا.

قلـــت بنبرة ما تزال هجومية: أي تخلف هذا، وأي جنون..! نحن الآن في عـــصر آخر وبلد آخر وثقافة أخرى، وأمر كالذي تهدف إلى فعله لن يفهمه أحد.. بل ويُعد جريمة خطيرة يحاسب عليها القانون.

نهض هائجاً فبدا بالمشهد المعتاد عند غضبه والذي أصفه بالمسرحي، ليس لتصنعه وإنما لحرارته، حيث يدور في المكان ويومئ بكل ما يتحرك من أعضاء جسده مهتزاً بكليته على إيقاع الكلمات التي تبدو وكأنها تُنتَزع انتزاعاً من أحشائه:

- وأين هو عصرك هذا.. وثقافته وقوانينه وهو يرانا نُذبح يومياً في بلدنا على مرأى منه.. بل وبدعم منه أحياناً!!.. ها.. أين.. ها..؟؟..

كان مُخيفاً حقاً وهو يدور حولي مثل ثور هائج، حول الكرسي، مما جعلني أنهض لأقف أمامه كأنما بفعل غريزي، فيما يواصل هو صراخه ويركل الحائط بقدمه.. وأنا على يقين من أنه لو كان في بيته هو لراح يحطم كل ما يجده أمامه.

-.. هــا؟.. أين هي حضارة وقوانين هذا العالم الحقير، الجايف، المنافق، السنذل؟.. وهو يرانا نُساق كالخراف إلى المجزرة بلا ذنب.. ها؟.. نعم.. قُلها.. نعم.. قلها صراحة بأنك لا تريد مشاركتي بالأمر، وليكن بعلمك، فأنا لم أطلب منك ذلك، ولست بحاجة إليك فيه و لم تكن في حسباني، وحسناً فعلت أنك قد كشفت عن نفسك قبل أن أُوهم نفسي بك أكثر.. ها.. قُلها.. صراحة إذاً.. أنتَ خائف.. رعديد.. مخنث.. أنت جبان.. خايس.. جايف..

عندها لا أدري كيف قربتُ وجهي إلى وجهه، فكنا كديكين منفوشين في حلبة صراع، وصرخت:

- أنا لست بجبان.. وإنما الفعل الجبان الحقيقي هو الذي تنوي فعله.. وهكذا فأنت الجـــ..

صفعني على وجهي بكل جبروته حتى أسقطني أرضاً.. ثم غادر صافقاً الباب وراءه بعنف اهتز له كل المبنى.

# - 15 -

حين جاءت فاطمة، في المساء، وجدتني غاطساً، بكل عُريي، في حوض الحمّام، فبعد أن صفعني أبي وصفع الباب خلفه، بقيت لبرهة ملقى على الأرضية منتحباً، وقد شل كفه وجهي، مددت ذراعي إلى أوطأ الصور وأقربها إليّ ورحت أنزعها عن الجدار وأمزقها فيما يهذر لساني بالسخط: لا أريد وطناً.. اللعنة عليه.. اللعنة على كل شيء.. فلم أعرف فيه وأحمل منه سوى الوجع، وطني إسبانيا.. لا.. ولا حتى إسبانيا.. لا أريد أي وطن.. لست بحاجة إلى أي وطن..

أحدق بالصور الممزقة بين يدي ثم أنشط بالبكاء، بانكسار حَنون:.. لكنه العراق.. العراق.. يا أبي.

أنهض على ركبتيّ محاولاً إعادة الصور الممزَّقة إلى أماكنها. كان داخلي يموج بعواصف تحاور بعضها بصخب، فحملتني عاتية منها على قدمي مجنوناً ورحت أخرط كل الصور المعلقة وألقيها هشيماً. كفي تتحسس خدي الأيمن الذي كان وخزه يزداد ضراوة فأحمل نفسي داخلاً إلى غرفة النوم، ممزقاً كل ما بقي هناك، ثم ملقياً بي على السرير ومتدثراً باللحاف كلياً. أتكور على نفسي، مثل جنين، بكل استطاعتي.. كأنني أحتضنني. أبكي هناك وأرتعد مثل طفل تلقى عقوبة لم تكن لتخطر على باله من والدين كانا يدللانه. أمواج هذياني المتضاربة معي تحت ظلمة اللحاف، تتبادلني بين شتم لكل شيء وترديد عبارة أبي: هذا العالم جايف.. هذا العالم جايف..

قررت ألا أرى أبـــي بعد اليوم أبداً، أن أقاطعه، أن ألغيه تماماً من حياتي.. كأنه لم يكن، هو وعائلتي والعالم وجدي.. آه جدي.. كم أنا الآن بحاجـــة إلى حـــنو أصابعك الفائض علينا في أسرّة المرض! وأنا في ســـريري الآن وحـــيداً أتوجع يا جَدي.. لكنك قد تنحاز إلى أبـــي باعتباره يريد تنفيذ ما تريد، أو لمجرد أنه أبـــي وأنت المُردد بأنه لا يجوز قول أُف للوالدين ولا نهرهما. فمن لم يرض عنه والداه لن يحظى برضى الله.. آســـف يا أبـــي.. لقد أخطأتُ بحقك، تطاولتُ عليك ورفعت صـــوتي بـــلا أدب.. كنت أستحق أكثر من صفعة واحدة منك إذاً.. اعذرني يا أبـــي.. ولكنني غير مقتنع بما تريد فعله، حاولت ثنيك لأني أحبك وأخاف عليك.. نعم أخاف.. ليس هذا لأنني جبان كما تعتقد، فخوفي هذا من نوع آخر.. هل تفهمه..؟ هل تفهمني؟.. طوال غربتي وأنـــا أراك تُجلسني، طفلاً، على ركبتيك وقدماك في شاطئ دجلة تقرأ لي قصائد غوته، لماذا لا تكن أنت الذي أحن إلى الالتصاق بظهره على ظهـــر حمارنـــا حين أوصله إلى الطريق العام..!.. لحظات دافئة. كنت أشـــعر عـــندها بأن قلبـــي الصغير يعانق فيها قلبك من وراء أضلاعي وأضلاعك.. وحتى رائحة عرق إبطيك كانت بالنسبة لي هي أزكى ما أشـــم.. كـــنا نُلوح لبعضنا وأظل أراقبك تبتعد.. أُلوّحُ.. وأُلوحُ حتى تختفي بك السيارة نقطة سوداء في خط الشارع الأسود.. فهل صفعَتك لي اليوم هي تلويحة وداعنا الأخيرة؟!.

أمواج داخلي تهزني في الظلمة تحت اللحاف وأشعر بأن عَرقي أمواج تـــرافقها أمواج من دفقات بكائي وأمواج من الألم المتصاعد في وجهي. لا أعـــرف كم بقيت على هذه الحال، ثم نهضت متوجهاً إلى الحمّام فرأيت حمـــرة خـــدي الأيمن أقل مما توقعت لأنني كنت أتصوره ملطخاً بدمي. غسلته بالماء البارد فقلت: أحتاج إلى الماء.. الماء، الماء يا عالية.

ملأت حوض الحمام، ألقيت بكل ثيابـــي على الأرض وتمددت في الماء مسنداً رأسي على الحافة، غاطساً حتى رقبتي، حتى أذني.. علّي لا أسمع شيئاً، علّي لا أسمع نفسي ولا صدى صفع أبـــي لنا أنا وباب بـــيتي.. غاطـــساً حتى أذنيّ.. حتى ذقني.. حتى اختناقي.. حتى جاءت فاطمة وهوت عليّ بقلب كسير: - سليم حبيبـــي.. ما بك!؟.. ماذا حدث!؟.

قرفَـــصَت جوار الحوض وتناولت رأسي تلزه على صدرها.. مثل أمـــي، مـــثل عالية، مثل جدي في لحظات حنانه.. وربما بكيت أيضاً. أنهـــضتني بعاطفتها وتناولتني بالروب المنشفة برفق محتضنة إياي.. تماماً كما كانت أمي تتلقفني من طشت الغسيل بعد أن تسبحني وهي تترنم لي بأغـــاني الحـــصاد والشاي والمطر: "مطر مطر يا عالي.. أطل شَعر رأســـي. رأســـي يـــا رأسي العالي.. أمطر على الناسِ". تأخذني مبتهجة وتـــشمني كتفاحة ناضجة، تقبلني وتقول: الله ما أحلى سلُّومي.. حبيبـــي نظيف.. حبيبـــي نظيف. وتقول فاطمة تعال إلى السرير يا حبيبـــي. مددتني هناك، تحت اللحاف ثانية، وهي تصفف لي شعر جبهتي الندي مُبعِدة إياه عن عيني بأصابع كالريش وتُقبلني وسط الجبين وعلى أنفي، فأقـــود أصابعها إلى صفحة خدي الأيمن علّ وخزه يهدأ، علّ احمَره قد انجلـــى، وربما هو كذلك لأنها لم تسألني عنه، أم تراها تصورته بسبب استنادي عليه على حافة الحوض!.. فهي لم تسألني عنه واكتفت بتكرار السؤال: ماذا حدث؟!. وأنا أردد أن لا شيء.. لا شيء.

فتواصـــل هي الاستدراج: وجدتُ المرقص مغلقاً، وحين ناديت علـــى بيت أبيك خرجت لي روسا وقادتني بعيداً عن الباب هامسة بأن شيئاً قد حدث بينكما، أعني أنت ووالدك السيد نوح.. وقالت أنه ممدد في فراشه يشرب ويدخن ويرتجف.. إنه في حال سيئ. ولم تخبرني بأكثر

مـــن أن شيئاً قد حدث بينكما، وبأننا لن نفتح المرقص اليوم للعمل.. واذهبـــــي يا فاطمة لتكوني إلى جانب سليم.. ماذا حدث يا سليم؟.. ولماذا كل الصور ممزقة هكذا؟.. وأنت ترتجف..

- لا شـــيء.. لا شيء.. أو.. نعم.. لقد أخطأتُ بحق أبـــي.. رفعت صوتي عليه وأسأت أدبـــي.. هل تعرفين يا فاطمة بأن أبـــي لم ينظر في وجه جدي على الإطلاق.. على الإطلاق.. كان يحترمه ويجله كما يجب.. أما أنا.. أما أنا..

- اهـــدأ يـــا حبيبـــي.. كل شيء سيُصلح.. اهدأ وكل شيء سيكون على ما يرام..

- لا.. إلا أنا فلن أكون على ما يرام أبداً.

- اهدأ الآن.. اهدأ الآن، سأعد لك شاياً أخضر.

علـــى مـــدى يـــومين لم أخرج من البيت. فاطمة ترعاني كأنني مريض. أعانتني في تحقيق رغبتي بخلع كل الصور، ولمَلَمت ما تفتت منها في علبة واحدة. أحياناً تداعب شفتي بأصابعها وتمازحني بغنج مقصود: أتـــريد تمـــراً؟. تغيب أطول حين تذهب لتجلب لي علب الدخان أو للتـــسوق أو لـــزيارة أختها. علمتُ فيما بعد أنها كانت تلتقي بروسا، فهـــي لا تـــتحدث معهـــا في الهاتف إلا بكلمات قليلة وأكثرها تِرداد كلمة: نعم.. نعم.. أوكي.

حتى جاءت إليّ روسا صباح يوم جمعة كانت فاطمة قد غادرَتني فـــيه بحجـــة أن أخـــتها تحتاجها اليوم وبأن عليها إنجاز بعض الشؤون المنـــــزلية الأخرى كغسل الملابس وكنس البيت والتسوق، قائلة إنها ستعود في المساء.. وطعامك جاهز في الثلاجة.

احتـــضنتني روسا وبكت متوسلة: أرجوك يا سليم.. تعال معي لرؤية والدك.. إنه يقتل نفسه هكذا.. لا يأكل.. فقط يشرب الكحول

ويـــدخن، ينام أحياناً مرتعشاً هاذياً في الفراش وصافعاً رأسه بقبضتيه، يضرب الحائط بقدميه وكفيه ورأسه، وبرأسه يطرق حديد السرير.. إنه يحطـــم كل شيء.. إنه يحطم نفسه.. إنه يتعذب يا سليم. لقد قبلتُ أنا وساطتكَ بيننا.. أتذكُر؟.. فتَقبل وساطتي بينكما.. أرجوك.. إنه يقتل نفـــسه لـــو استمر على هذه الحال.. إنه يعذب نفسه لأنه صفعك ولا يخـــبرني بحقيقة ما حدث.. فقط يصفع نفسه في كل لحظة ويقول: لقد صفعتُ سليم يا روسا.. أنا حيوان.. أنا حيوان.. أرجوك يا سليم تعال معـــي.. لأنـــه سيقتل نفسه هكذا، ولو حدث له مكروه فسأموت أنا الأخرى.. أرجوك..

رافقتُها مزوّداً بعلبتين من الدخان واضطراب هادر بدقات القلب. فتحَت لي الباب بحذر وهَمست:

- ادخل أنت وسأبقى أنا هنا.

رأيت أبـــي مستلقياً على الكنبة في عتمة الصالة. منفوش الشَعر. ذراع تـــتدلى في الفراغ حاملة قنينة ومن اليد الأخرى يمتص سيجارة. ومـــا أن رآني حـــتى هب إليّ معانقاً. بكينا في رقاب بعضنا وكل منا يطلـــب الصفح من الآخر. هو يقول بأنه أب فاشل وأنا أقول بأنني ابن عاق. سامِحني.. سامِحني أرجوك. وحين فككنا عناقنا وجدته يمد إلي بخده الأيمن قائلاً: اصفعني.. اصفعني. لا يا أبـــي.. لا يا أبـــي. فأقبل خده وأحتضنه من جديد.

بـــدا لي أكثـــر هزالاً، متعَباً ومهزوماً على نحو لم أر فيه كل هذا الضعف من قبل. حين هدأنا على الكنبة متجاورين تحيط بنا الزجاجات الفارغـــة وأمامنا على الطاولة منفضة فائضة بأعقاب السجائر. شَعرنا بتوحدنا أكثر من أية لحظة أخرى، وشعرنا بوحدتنا وبغربتنا الحقيقية في هذا العالم (الجايف) أكثر من أية لحظة أخرى. وبعد أن سادت هدأتنا،

فكرت لو أنني كنت قد استثمرت الموقف واشترطت عليه، لأسامحه، أن يتخلـى عن عزمه على تنفيذ غايته. لكنني رضيت بالأمر لأنني أنا من كـان يحتاج إلى الصفح منه، ومن ثم كي لا أثير هذا الموضوع مرة أخـرى. لكنني وجدت نفسي، خلال حديثنا اللاحق، أشير إلى رغبتي بـشكل آخـر أكثر ليونة وحيادية مصطنعة. وكان هو الذي لامس الموضوع، حين كشف عن حقيقة ضعفه المخفي أو بالأحرى قوته التي أعرفها، فقد كشف لي عن التصارع في داخله حول هذه القضية، فهو، كمـا يقـول، بين نارين إحداهما ما أسميته أنا، سابقاً، بإرثه الأخلاقي والـديني، وأنـا أعرف عمق قَسمه على القرآن وكبر معناه أمام هيبة جـدي، ومعنى الثأر وجدية حد القداسة في عُرفنا الاجتماعي، والنار الأخـرى هـي قـناعاته الخاصة التي تتفق مع ذاته ومعي، في أنه، في الحقـيقة، رافض للعنف وثقافة الثأر ولا يستسيغ التعصب. "صدقني يا سـليم.. أنا وإن ظهرت بجلد ذئب لكن لي قلب حمل وديع".. يقول بأنه لو نفذ غايته سيندم ويتعذب وإن لم ينفذها سيندم ويتعذب..

- لن تندم يا أبـي ولن تتعذب.. صدقني.
- لكنني قد أقسمت على القرآن، يا سليم، وعاهدت أبـي؟!.
- "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم".
- لم يكن لغواً.. كنت صادقاً وجاداً في قَسمي.

- إنه تأثير اللحظة، فقد كان للأمر لحظته الخاصة المشحونة بالغضب وتغيـيب العقل.. الله كبير وهو عالم بذلك وبكل شيء، وجدي سيفهم الأمر حين تكون الأشياء أكثر وضوحاً وجلاءً في العالم الآخر.

كـنتُ أعزز دعم كلامي بما أذكر من القرآن وأحاديث النبـي، وخاصة حين لاحظت يسر تقبل أبـي لها أو ربما لأنه، في الأصل، يريد التبرير من هذا الباب تحديداً.

- "وإن عاقبتُم فعاقِبوا بمثل ما عُوقِبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين"..

- وآزاد.. ماذا سأقول لأخي آزاد؟.

- قل له أي شيء.. بأنك قد نفذت الأمر.. أو أن الشخص المقصود لم يكن هو.. أو أنه قد انتقل إلى بلد آخر، إلى جهة مجهولة، إلى جهنم.. أو مات.. أو أي شيء.. أو أخبره بحقيقة قناعتك الجديدة.. بل، وحتى حاول إقناعه بالكف عن سلسلة انتقاماته وثأره.. فمبدأ العين بالعين مرير يا أبي.. صحيح أننا نحن الذين سنناه ولكن تجارب الإنسانية اللاحقة توصلت إلى أن تطبيقه سيجعلنا، في النهاية، كُلنا عميان.

- الأمر ليس بهذه البساطة يا سليم، فقد راكمتُ حقدي على هذا الشخص طوال هذه الأعوام.. فكيف سيمكنني التخلص من ذلك في لحظة؟!.

صمتُ قليلاً بعد أن كنت قد شعرت بتدفق الكلام على لساني ومرونة الحكمة، إذا جاز لي أن أصف ذلك على هذا النحو.. أو إذا جاز لي أن أسم نفسي بذلك!.

- للتنفيس عن نفسك أرى بأن تتصل به الآن هاتفياً وتلقي على مسامعه بكل ما تريد.

ونهضت متناولاً دليل الهواتف مقلباً صفحاته الصفراء، فيما كان هو ساهماً لا يبعد السيجارة عن فمه. غمامة دخانها تلف وجهه.. حتى سمعته يقول: عندي رقم الهاتف واسمه. واستل من جيبه دفتراً صغيراً لأرقام الهواتف والعناوين. فتحه، ثم دفعه إليّ مشيراً بإصبعه إلى الرقم والاسم، ودون أن أنظر إلى وجهه، رحت أدير قرص الهاتف، وحين جاءني صوت امرأة، طلبت منها أن توصلني بالشخص المعني.. لأمر هام رجاءً. قالت: لحظة من فضلك. دفعتُ بالسماعة إلى أبي ورحت أراقبه.

كانت كفه ترتجف وشفتاه تختلجان. وبعد لحظات انتظار قصيرة، انفجر بصوت عال ومخنوق:

- لماذا؟..

ثم سرعان ما تدفق الصراخ الرهيب حد قشعريرة الجسد..

- لمـــاذا؟.. لمـــاذا فعلتُم بنا كل هذا يا مجرمين.. يا حقراء.. يا خنازير.. يا أبناء الزنى.. يا..

وسمعـــت جلبة إغلاق الطرف الآخر لسماعة هاتفه ليتصل بعدها الطنيـــين، فـــيما أبـــي يواصل صراخه: لماذا؟.. لماذا؟.. هويتُ عليه محتـــضناً، فـــأجهش بالبكاء شاخراً كثور ذبيح، ودخلت روسا هلِعة باندفاع. احتضنتنا معاً متسائلة: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟. ثم سارعت إلى المطبخ عائدة بجرة ماء تغسل به وجه أبـــي وتسقيه.

بعـــد وقت، لا أستطيع تقديره، من هذا الاحتدام الذي لم أعرف مـــثله في حـــياتي، وأشك بأنني سأشهد مثله ثانية، هدأ أبـــي أكثر مما توقعناه.. كمن تقيأ طعاماً مسموماً كان يزعجه، كأن الـــ (لماذا؟) هي الآفـــة الـــتي كانـــت تأكـــل جوانحه، وراحت صفرة وجهه تتلاشى بالتدريج.. عندها قلت له:

- ما رأيك أن نذهب اليوم معاً إلى المسجد ونصلي الجمعة؟.

قرأتُ في ملامحه ارتياحاً وهو يومئ لي بالموافقة..

- إذاً ســـأذهب أنا الآن إلى بيتي ريثما تغتسل أنت وتأكل شيئاً وسآتي لمرافقتك.

قبلّـــته وخرجتُ تشيعني نظرات روسا بالشكر والأسئلة، وهي ما تزال تطوق رقبته بذراعها وفي الأخرى جرة الماء.

# - 16 -

بعد خروجنا من المسجد إثر صلاة الجمعة الماضية، صافحني أبي وقال: تقبَّل الله صلاتك.. شكراً لك يا سليم. صمت قليلاً، ثم أضاف: ما كنتُ أتوقع هنا وجود هذا العدد الكبير من المسلمين وهذا المسجد الجميل. كان هادئاً كأن قلبه من ماء رائق، وهالة الرضى الروحي تجلله بوضوح. شعرتُ عندها بأنني قد استعدت أبي واجداً فيه الكثير من صورته القديمة.؛ لذا قررت عدم مواصلة الحفر فيما يكتم.. سأكف تماماً عن تساؤلاتي.. سأنساها.. أو الأدق؛ سأتناساها وخاصة ذلك المتعلق بطبيعة موت جدي. ولن أسأله فيما إذا كان قد تخلى عن هدف البر بقَسَمه، أم أنه أجله، وحسب، وسينفذه دون علمي.

أعززُ هذا القناعة، ولو من باب التبرير أيضاً، بما قاله خطيب الجمعة: يا إخواني.. إن الله يقول: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوكم".. فليس من المفترض بنا أن نعرف كل شيء، وإذا كان في المعرفة راحة أحياناً، فإن في الجهل والنسيان، أحياناً، راحة قد تفوق راحة المعرفة.

أشعر بارتياح ما، وأنا أستعيد، في الأيام الأخيرة، إحساسي بكون مفردات حياتي عادت لتكون مرتبة. صبغتُ جدران صالة بيتي مغطياً ثقوب المسامير بالأبيض. أبي صبغ شَعره بالأسود. فاطمة تقول إن أهلها وافقوا على زواجها مني، بقي أن نخبر أباك. أبي وروسا بكامل أناقتهما يجلسان بانسجام أمامنا على الطرف الآخر

من دكة البار بعد أن تأكدا من جاهزية كل شيء للعمل، لسهرة الليلة. يقول لي: شَعرك قد طال.. هل تريد أن أحلقه لك مرة أخرى؟ ويضحك. لا يكف عن الشرب والدخان لكنه، ولأكثر من مرة، أبدى نيته بتقليلهما.

أذكر أنه قبل يومين قال لي: أرى أن تحاول الذهاب إلى المسجد في كل جمعة. رفع الكأس التي في يده وأضاف مبتسماً: على الأقل كي نقلل من ذنوبنا. الوقت مساء وكنا نحن الأربعة فقط في المرقص لأن العاملتين الإسبانيتين لم تأتيا بعد. أبي وروسا يتهامسان ببهجة، وفاطمة تهمس لي: هيا أخبره.

- أبي، روسا. أنا وفاطمة نريد أن نخبركما بشيء.
- ونحن أيضاً لدينا مفاجأة لكما.
- ما هي؟.
- لا.. قولا أنتما أولاً.
- فاطمة وأنا قررنا أن نتزوج.

نهضا معاً عن مقعديهما هاتفين فرحاً بكلمات التهنئة وراحا يأخذان رأسينا، من خلف الدكة، بالتقبيل. ثم أمرانا أن نصب لنا شيئاً نشربه وشرعنا بقرع كؤوسنا على طريقة تبادل الأنخاب الاحتفالية. سنقيم لكما هنا حفلة هائلة. ووسط هرج الابتهاج سألت روسا، كأي امرأة، أو بنوع من إضفاء المزيد من الحميمية العائلية وإشاعة طول الآمال: وماذا ستسميان أبناءكما.. يعني مثلاً إذا كان المولود بنتاً. أو ربما قالت ذلك لأنها قد وجدت فينا نوعاً من تحقيق، تعويضي، لحلم أمومة لم تُحققه.

قالت فاطمة وهي ترمقني بمغزى: أنا أعرف. وقال أبي: وأنا أعرف أيضاً. فسألته فاطمة: ماذا؟. نظر إلي أبي وقال: عالية.

فقفـزت فاطمـة مصفقة له: صحيح.. صحيح. وقارعنا كؤوسنا مرة أخرى ليختلط رنينها بضحكاتنا. وبعد الهدأة قالت روسا: أما إذا كان ولداً فأنا أقترح أن تسمياه نوح. وكفها تمسد رأس أبـي من الخلف، لكـنه بـادر بنبرة أراد منها الإيحاء بالسخرية: لا.. هذا فأل سيئ فما ذنـب المـسكين الصغير كي نُحمله مصائبـي. ثم وسع من ابتسامته وحـدق بـي موقناً من قوة سخريته هذه المرة حين قال: سنسميه صـراط. فصفقنا أنا وهو كفينا ببعضهما، كصبيين، منفجرين بضحك عـال وسط دهشة امرأتينا، ووجدتني أنساق مع حمّية الضحك لأزيده بتعليقـي: ولكـن صراط بنقطة أو بدون نقطة؟. تصافعت كفانا ثانية وارتـد أبـي من شدة ضحكه.. إلى أن عاود هدوئه ثم اقترب، فقلت بجدية حقيقية: سنسميه مطلق. فصافحني أبـي وقال: نعم هذا جيد.

وسألت فاطمة: - والآن ما هي مفاجأتكما؟.

نظرت روسا إلى أبـي قائلة: أأقول أنا أم تقول أنت؟. ثم قالت دون انتظار: قررنا الذهاب إلى ألمانيا وأن نترك المرقص وشقتنا لكما إن أردتماهما.. وأضافت باسمة: على أن تدفعا أنتما إيجارهما طبعاً. وأضاف أبـي: هناك سنبحث أيضاً عن أصدقائي من أيام النفط في كركوك؛ كريستوف وزوجته سابينه.

العاملـتان الإسبانيتان دخلتا قبيل حلول الظلام، في موعدهما المعـتاد، وبالطبع تم الكشف لهما عن أسباب هذا المناخ الاحتفالي (وهاتلك يا بوس). هذه المسرة التي يبديها البعض بمشاركة الآخرين فرحهم، أو يتعاطف شخص مع هموم آخر.. دائماً تمس في صدري وتـراً عاطفياً من الانفعال تدمع معه عيناي أحياناً، مثلما يحدث لي عند مشاهدة مواقف من هذا النوع في الأفلام. أعرف أن مشاركات من هذا النوع بديهية وقديمة بقدم إنسانية الإنسان.. لكنها، بالنسبة

لي، دائماً جديدة، فأنفعل فرحاً بالطيبة والخير مثلما أنفعل توجعاً من الشر.

ومـــع حلـــول الظلام في الخارج واشتعال أنوار أعمدة شوارع المديـــنة، كان بعض الزبائن الدائمين قد وصلوا مبكرين وهم يستبقون بـــدء الرقص بأن يطلبوا شيئاً بسيطاً يأكلونه إلى جانب ما يشربون.. كـــنوع من التهيئة والاستعداد للتمتع بالسهرة من أولها وإلى أن تصبح أجسادهم عاجزة عن المزيد من المقاومة.

كلما تزايد العدد تزايد معه الصخب والدخان. ولاحظت كذلك تزايد ما يشربه أبـــي ويدخنه، وهو يقول لنا كلما اقترب لطلب كأس جديـــد: لا بأس.. لا بأس.. مرة واحدة لا تضر.. وهذه الليلة خاصة تليق بالاحتفال بها إلى أقصى حد.

فـــضلّت تصديقه بدلاً عن معاودة هواجسي بالانشغال مجدداً في محـــاولات تفسير سلوكياته ومحاكمتها، وقلت لنفسي؛ علي أن أتعلم تقـــبُله كمـــا هـــو بكـــل تناقضاته - فمن ذا الذي لا ينطوي على تناقضات؟.. لا أحد. - وليس لي أن أواصل فرض، على ذهني وعليه، صورته التي أريد.

وكالعـــادة حـــين يرى المكان قد ازدحم، وبعد أن يأخذ أعضاء الفـــرقة الموسيقية مواقعهم، صعد إلى الدكة المسرح، خالعاً الميكروفون مـــن عـــصاه ومقـــرباً إيـــاه إلى فمـــه، حيث يفتتح السهرات بـــ (مونولـــوج/خليط من لغات) فقرات من الكوميديا والمزاح وكلمات التـــسخين التي تبث الحيوية في الجميع، متخذاً في كل سهرة شخصية مخـــتلفة ليمثلها: سائق تكسي، مطرب مشهور، جندي، امرأة ثرثارة، بائع خضراوات، لاعب كرة قدم، طبيب.. وغيرها. صعدت روسا إلى جـــواره كي تترجم عند الضرورة. كان هذه الليلة أكثر مرحاً وخفة

وابتهاجاً وتمثيلاً من أية ليلة سبقتها. واكتشفتُ، وأنا أراه مرتفعاً تتسلط عليه الأضواء، بأن أبي بالغ الوسامة والثقة بالنفس والقوة ناضحاً بالحياة.

بدأ بنبرة صوت مُفخَّمَة عن قصد وقال:.. مساء الخير، سيداتي آنساتي سادتي، طابت ليلتكم.. يا شعبي العظيم. فاشتعلوا كالعادة بدفقة من التصفيق والصفير وأحدهم يصيح: عاش الملك. فيما يرد عليه البقية: عاش، عاش. ويضحكون.

تنحنحَ هو بعدها كمن ينظف حنجرته، ومثَّلَ بأنه يعدّل ربطة عنقه وهو بدونها (ضحكٌ) ويبدو أن تقديمه اليوم سيتقمص فيه ساخراً هيئة ملك، أو الخطباء السياسيين، وهذا ما بدا مما قاله ومما تلبسه من هيئة وملامح وصوت حتى الآن.

آمركم اليوم بأن تفكوا الأحزمة عن البطون فلدينا الفائض من الشراب، ونحن بحاجة إلى نفط جيوبكم. وآمركم بالرقص حتى تتقطع مَشَدّات سراويلكم الداخلية، فلدي لكم الليلة أخبار عظيمة: وليّ عهدي، الأمير سليم سيتزوج من الأميرة فاطمة. الجميع يلتفت إلينا (بالتصفيق والصفير والتهنئة). أما جلالتي والملكة روسا فسوف ننتقل إلى ألمانيا العظيمة. وسيبقى وليّ عهدي ليقوم مقامي، لذا أحذركم من أن يتجرأ أحد منكم على إزعاجه، لأنني سأجيء طائراً وعندها سيعرف ما الذي سأفعله به.

صاح أحدهم: ماذا ستفعل؟. فأجابه على الفور: سأدعوه لتناول ما يشاء على حسابي. (ضحك، تصفيق). يواصل أبي خطابه مُجيداً الإيحاء بين ما يريد إيصاله جاداً وبين ما يقصد به الإضحاك. وكان يكثر من تكرار كلمة (عظيم). فاطمة إلى جواري متوردة الخدين بابتسامتها الدائمة التي كانت هذه الليلة أكثر اتساعاً وعذوبة.

وهي تكاد ترتفع عن الأرض بخفة تحركها، تجيب للزبائن طلباتهم وترد على تهنئاتهم. أُخبِرها بأني أفكر بتغيير عمل هذا المكان لاحقاً من مرقص إلى مطعم عربي مثلاً. توافقني وتقول بأنها ستطبخ وجبات مدهشة.. سأجعل الزبائن يقبلون على الكسكس بالطوابير. فأنا لا أجيد المواءمة بين كل هؤلاء المتناقضين.. لا أجيد إدارة المرقص مثل أبي يا فاطمة.

وأبي يقول في الميكرفون: أود أن أشكر الجميع على حسن استضافتهم لنا في اغترابنا، وأعلمكم بأن الأصنام في العراق ستسقط حتماً. أقول الأصنام ولا أعني التماثيل. عندها سنعود لنعيد بناء قريتنا الجميلة، لتكون أرضاً للسائحين لا للقبور، وسوف نسميها (الأحرار، أو المطلق، أو الكرامة)، اللهم أدم علينا حبنا للحرية وكرامة ابن آدم، وأمِتنا كما تريد أو كما نريد لا كما يريدون.. قولوا آمين.. فدوى الحشد(آميين).. والجميع مدعوون ليكونوا ضيوفاً علينا.. ولكن.. ها.. لن نفتح فيها مرقصاً بالطبع. هتفت إحداهن به: فماذا ستفتح للضيوف إذاً؟. أجابها: سأفتح لهم ساقيكِ. (ضحك، تصفيق وصفير).

أُخبِرُ فاطمة بأني أفكر بأن نجلب جارتي الكوبية للعمل معنا في مطعمنا القادم.. وأقول لها بأني أفكر أن نأخذ شقتهما لأن فيها غرفتين وهكذا يمكن لأختك أن تعيش معنا أيضاً.. كما أننا سنحتاجها للأطفال.. وسوف نـ.. وضعت فاطمة إصبعها على شفتي بمحبة، قاطعةً بذلك سلسلة ما أبوح لها به مما أفكر أن نفعله مستقبلاً.. وكأني كنت أجاري أبي في خطابه عن المستقبل. وقالت: إششش.. سنواصل الحياة يا سليم.. سنواصل الحياة.. ودعنا الآن نستمتع بهذا المسرح.

بعد ثلاثة أيام، سلّمَني أبـــي المفاتيح.. بلا رصاصة.

بعد ثلاثة أيام أخرى، غادَر أبـــي وروسا إلى ألمانيا.

بعـــد ثلاثة أيام أخرى، علمتُ بأن ذلك الدبلوماسي قد نُقل إلى السفارة العراقية في برلين منذ أسبوع.

!!!



# تمر الأصابع

## رواية

## محسن الرملي

• روائي وكاتب من العراق

بعد أكثر من كتاب له في القصة القصيرة والمسرح والشعر والترجمة، هذه هي الرواية الثانية للكاتب العراقي محسن الرملي الذي حظيت روايته الأولى (الفتيت المبعثر) باهتمام نقدي عربي وغربي جاد وحازت ترجمتها الإنكليزية على جائزة أركنساس الأمريكية سنة 2002. وقد صدرت (تمر الأصابع) باللغة الإسبانية أولاً في مدريد. تدور أحداثها بين العراق وإسبانيا وتتناول جوانباً من طبيعة التحول في المجتمع العراقي على مدى ثلاثة أجيال، فتتطرق إلى ثنائيات ومواضيع شتى كالحب والحرب والدكتاتورية والحرية والهجرة والتقاليد والحداثة والشرق والغرب.. وغيرها.

قال عنها الكاتب الإسباني المعروف **رافائيل ريج** بأنها: «رواية تطرح علينا أسئلة نخشى طرحها على أنفسنا وتكشف لنا مما نجهله عن أنفسنا نحن الأسبان، وهي في الوقت نفسه بمثابة رحلة للتعرف على الذات من خلال التعرف على الأب».

ووصفها الشاعر والناقد **مانويل رينا** في مقال له عنها في صحيفة الآ بي ثي بأنها: «رواية مشحونة بالعاطفة، بديعة باستحضاراتها وحنانها وتمتاز بقدرة كبيرة على رسم التناقضات ونقاط الاختلاف والتلاقي بين ثقافات الغرب والشرق.. إنها بحق هدية للفكر والحواس».

فيما كتب عنها المسرحي والشاعر **فرانثيسكو ثينامور** قائلاً بأنها: «جميلة، جميلة جداً هذه المشاهد والحكايات التي يبدعها لنا محسن الرملي والتي تتعلق بالحب وبالتراجيديا وبالثنائيات وبالتحول والصراع بين التقليدي والحديث».

بينما اعتبر الملحق الثقافي لصحيفة (الموندو) محسن الرملي بأنه واحد من أهم الأصوات في النثر العراقي المعاصر.



ISBN 978-9953-87-628-3

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (+213)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com